دراسات

# جاك دريدا

# الصَّفْح

## ما لا يقبل الصفح وما لا يتقادم

مكتبة
الفكر الجديد
08-08-2018

ترجمه عن الفرنسية: مصطفى العارف - عبد الرحيم نور الدين

المتوسط

# الصَّفْح

مكتبة
الفكر الجديد

حقوق النسخ والتأليف © ٢٠١٨ **منشورات المتوسط** - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهًة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

**Pardonner** ***by*** "Jacques Derrida"
Arabic copyright © 2018 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: جاك دريدا / المترجم: مصطفى العارف - عبد الرحيم نور الدين.
عنوان الكتاب: الصفح - ما لا يقبل الصفح وما لا يتقادم
الطبعة الأولى: ٢٠١٨.
تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

**ISBN: 978-88-85771-36-9**

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

مكتبة الفكر الجديد

جاك دريدا

# الصَّفْح

## ما لا يقبل الصفح وما لا يتقادم

ترجمه عن الفرنسية: مصطفى العارف - عبد الرحيم نور الدين

المتوسط

مكتبة
الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

# تقديم الترجمة

نقدّم هنا ترجمة عن الفرنسية لكتاب الفيلسوف الراحل جاك دريدا، يدور موضوعه حول الصَّفْح، كتصرُّف أخلاقيّ واعٍ ومسؤول، يقوم به شخصٌ ما، سبق أن كان ضحية إساءة، أو أذى، أو جريمة، تجاه الجاني. ليس هذا التصرّف بجديد، إذنْ، بل هو قديم قِدَمَ النزاعات والحروب البشرية، وهو عنصر أساسيّ في العلاقات الشخصية. لقد تناولتْه الأنساقُ الأخلاقية كلها، وحاولت تحديد شروطه وفوائده. الشيء نفسه ينطبق على الأديان، وإن كانت تطرّقتْ إلى الأفعال الإنسانية الشّرّيرة، كذُنُوب، تستوجب الاستغفار والتوبة والتكفير.

ليس خافٍ عن مُستعملي العربية أن فكرة الصَّفْح في اللسان العربيّ تتحرّك ضمن شبكة من المفردات (معذرة، مُسامحة، سماح، عفو، إعفاء، استغفار، غفران، مَغفرة، تكفير عن الذنب، توبة...) وهي ذات حمولة دينية، تحيل في نهاية المطاف على صَفْح الإله الغفور. وهو ما يعني أن عملية ترجمة مصطلح pardon إلى اللغة العربية تصطدم بصعوبات اختيار المقابل المناسب، خصوصاً وأن صاحب الكتاب، لا يقتصر على أنماط حضور كلمة "صَفْح" في اللغة الفرنسية، بل ينتقل من لغة أوروبية إلى أخرى، مستحضراً التراثات الروحية والتقليد الفلسفي.

تفيد كلمة "صَفْح" في اللسان الفرنسي "الغفران (الذي تمنحه



مكتبة الفكر الجديد

الكنيسة)، والمَغفرة الإلهية والعفو". كما تعني "المسامحة والصَّفْح". وفي استعمالات يومية معيّنة، تأتي بمعنى "عفواً، ومعذرة، وأستميحك عذراً".

تبدو الكلمة أيضا من حيث ترتيب حروفها وكأنها مركّبة من كلمَتَي par و don، أي "بِ هبة"؛ الشيء الذي يستثمره دريدا في حديثه عن الصَّفْح كهبة، وفي تحليله لاشتراك الهبة والصَّفْح في العديد من الخصائص.

يعني الصَّفْح بالنسبة للناطقين بالعربية، العفو عن الشخص، وتجاوُز ذنبه، ومُسامحته. يقال: "صَفَحْتُ عن ذنب فلان، وأعرضتُ عنه، فلم أُؤاخذه به، وتركتُه". ويُعَدّ الصّفُوح كريماً، لأنه "يَصَفْحُ عمّنْ جنى عليه". كما يقال: "اِسْتَصْفَحَهُ ذنبَهُ اِسْتِصْفَاحَاً، أي اسْتَغْفَرَهُ إيّاه، وطلب أن يَصْفَحَ له عنه."

لكنْ، إذا كانت هذه المعاني تفيد ما هو إيجابي، فإن هناك دلالات سلبية، تعرضها القواميس العربية نحو: " صَفَحَ الرجل يَصْفَحُهُ صَفْحاً، وأَصْفَحَهُ، أي سألَهُ، فمنعَهُ"؛ و" صَفَحَهُ عن حاجته يصفحُهُ صَفْحَاً، وأَصْفَحَهُ، كلاهما: ردَّه"؛ كما يقال " أتاني فلان في حاجة، فأَصْفَحْتُهُ عنها إِصْفَاحَاً، إذا طلبها، فَمَنَعْتُهُ". لا يمكن الحديث، إذنْ، من الناحية اللغوية، عن ارتباط آليّ بين الصَّفْح والكَرَم، إذ قد يطلب إنسان الصَّفْح، فيُمنَع منه.

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن بعض معاني كلمَتَي "صَفَحَ" و"غَفَرَ" تحمل في طيّاتها ما قد يرتبط، بشكل من الأشكال، بفكرتَي دريدا عن ضرورة وضعية "وجهاً لوجه" (الضحية والمجرم) في عملية الصَّفْح، واشتراط سرّيّة هذا الأخير. ففي شرح "غَفَرَ" نعثر على "سَتَرَ وغطّى"، و"الغفور الغفّار هو الساتر للذنوب". أما كلمة "صَفَحَ"، فإنها تفيد أيضاً النَّظر في الأمر

أو الشيء "صَفَحَ الأمرَ، وصَفَحَ في الأمر"، والنظر إلى القوم " تصَفَّحْتُ وجوهَ القوم؛ صَفَحَ القومَ، وتصَفَّحَهُم، أي نظر إليهم طالباً لإنسان"، "القيه صفَاحاً، أي استقبله بصَفْح وجهه."

انطلاقا ممّا سبق، ومن خلال التقابل بين طلب الصَّفْح أو الاستصفاح وبين الإستجابة لطلب الصَّفْح أو منحه، يمكن طرح تساؤلات من قبيل: ما هو تعريف الصَّفْح؟ ما الفرق بين طلب الصَّفْح ومنحه؟ هل من الضروري الاستصفاح؟ وهل من الواجب التكرّم بمَنْح الصَّفْح؟ وهل للاستصفاح شروط؟ وهل الصَّفْح ممكن؟ وهل يحتمل المفهوم أبعاداً سياسية وقانونية ودينية؟ وتِحت أيّة شروط؟ هذه بعض مسائل الإشكالية التي يعالجها كتاب دريدا؛ وهي إشكالية الصَّفْح، إشكالية الصَّفْح عن الشّرّ الجذريّ الذي يتجاوز حدود الإنسانية، الشّرّ البربريّ الذي طال ويطال إنسانية الإنسان. لقد كان القرن الـ ٢٠ حافلاً بالفظائع والشرور. يكفي أن نذكر ههنا الحربَيْن العالميَّتَيْن الأولى والثانية، وحملات التطهير العِرْقي، والميز العنصري بتجلّياته كلها، ومخلّفات الاستعمار الإمبريالي بأشكاله كلها. فهل من الممكن الصَّفْح عن الجرائم التي صُنِّفت في عداد الجرائم ضدّ الإنسانية؟

إن نصّ دريدا هو قراءة ومناقشة لأطروحات الفيلسوف الفرنسي فلاديمير جانكليفيتش، الذي طرح إشكالية "الصَّفْح" في كتابَيْه: الصَّفْح (١٩٦٧)، و"ما لا يقبل التقادم" (١٩٨٦). يطرح جانكليفيتش في هذَيْن الكتابَيْن إشكالية الصَّفْح بحدّة مفرطة، وبإفراط متزايد، يهمّ مسألة المحرقة التي ارتكبتْها النازية. يتجلّى إفراط جانكليفيتش في كونه يتعصّب إلى حدّ كبير لنزعة انتقامية، تحاول أن تصيب الوعي الألماني كله في مقتل، ذلك أنه يُحمِّل هذا الوعي كله - هكذا بتعميم أعمى- فضيحة المحرقة،



مكتبة الفكر الجديد

ويجعله مذنباً، وعياً شقياً وسيّئاً، على الرغم من أن هذا الوعي يتفاضل عبر أجيال مختلفة. بيْد أنه يُعمِّم الأمر، ويُسقطه على الألمان كلهم الذين عاصروه، يقول في هذا الباب: "عندما يكون المذنب مكتنزاً، جيّد التغذية، ومزدهراً ومغتنياً بفضل "المعجزة الاقتصادية"، فإن الصَّفْح يكون عبارة عن دعابة ثقيلة". يظهر جلياً كيف أن جانكليفيتش يُصادر الوعي الألماني كله، ويُخندقه داخل زنزانة الوعي المذنب، لدرجة أنه يحسد حتّى الوضعية الاقتصادية المزدهرة للمجتمع الألماني، جاعلاً إيّاها لا تتلاءم إطلاقاً وطلب الصَّفْح، أو إمكانية الصَّفْح، فكيف يمكن لمذنب ألماني مكتنز ويحيا حياة رغيدة أن يشعر بالذنب، ويطلب الصَّفْح؟ وهل سبق له فعلاً أن طلب الصَّفْح؟ إنها أسئلة محرجة جدّاً، تتجاوز حدود اللباقة الفكرية والفلسفية، إلى درجة أن جانكليفيتش يُشبِّه الألمان - هكذا بإطلاق - بالخنازير، لكونهم اقترفوا تلك الشرور والفظائع كلها.

إن المحرقة لا تتناسب، حسب جانكليفيتش، والسُّلَّم الإنساني، إنها تتجاوز حدود ما هو إنساني وحدود الشّرّ، لتطال إنسانية الإنسان، إنها تدخل في باب ما يُسمّيه "ما لا يقبل التكفير Inexpiable" ، وما لا يمكن تجاوُزه والتغاضي عنه، بمُجرّد إقامة مصالحة وصَفْح ساذَجَيْن. إن ما ارتُكب لا يطاله الصَّفْح، ولا يقبل التجاوز، إنه يدخل في ما لا يقبل التقادُم، وما لا يتقادَم، إنها جرائم تتطلب أن تبقى الذاكرة متّقدة وحيّة، بل ويجب أن تظلّ الذاكرة شاخصة في الماضي، في ماضي الأحداث، حتى يصبح هذا الماضي حاضراً بصيغة الماضي، أو بعبارة أخرى، تعيش الذاكرة الماضي بصيغة الحاضر. إن صرخة جانكليفيتش قوية ومُدوّية، يكرّرها على لسان الشاعر الفرنسي إيلوار Eluard : "لا يوجد خلاص على الأرض ما دمنا نستطيع الصَّفْح عن الجلادين". إنها صرخة الضحية، أو مَنْ يتقمّص دور الضحية، في مقابل الجلاد.



مكتبة الفكر الجديد

يزيد جانكليفيتش من إفراطه في الموضوع عندما عندما ينسب للنزعة النازية اعتبارها وجود اليهود خطيئة في حدّ ذاته، بحيث إن اليهوديّ عبر التاريخ كان لزاماً عليه أن يُبرِّر وجوده الذاتي، يقول بهذا الصدد: "[...] وجوب وجود اليهودي ليس بديهياً: دائماً ما يجب على اليهودي تبرير ذاته، الاعتذار عن كونه يحيا ويتنفّس؛ ويعدّ تطلّعه إلى الصراع من أجل الاستمرار والبقاء على قيد الحياة، في حدّ ذاته، فضيحة، لا تُفهَم، وتتضمّن شيئاً ما متجاوزاً للحدود (...) ليس من حقّ اليهودي أن يوجد، وجوده هو خطيئته."

لا يجوز الصَّفْح بأيّ شكل من الأشكال عن الجرائم التي ارتُكبت ضدّ إنسانية الإنسان، ضدّ ما تكون به إنسانية الإنسان، أي ضدّ القدرة على ممارسة الصَّفْح ذاته. أضفْ إلى ذلك أن مقترفي الجرائم لم يتقدّموا أبداً بطَلَب للصَّفح، ولا سعوا إلى الحصول عليه، ذلك أنهم لم يعترفوا بأخطائهم، ولم يُعبّروا عن أيّ شكل من أشكال الندم أو التوبة.

إن حَصْرَ الصَّفح في ثنائية الضحية والجاني ومقاربته من زاوية منطق التبادل (ضرورة استصفاح الجاني وحُرّيّة الضحية في مَنْح الصَّفْح أو رفضه)، لا يستقيمان وبنية الصَّفْح بما هو كذلك. إن جانكلفيتش حبيس الاقتصاد التقليدي والمعتاد للصَّفْح، والذي يجعله يقول باستحالة الصَّفْح عن الجرائم النازية، نظرا لتجاوز فظاعتها كل الحدود إلى أن غدت بذلك "ما يستحيل جَبْر ضَرَره" و"ما لا يقبل الصَّفح". هذا هو المأزق الذي يقف عنده دريدا، ويبحث عن مخرج منه. بالعودة إلى تعريف دقيق للصَّفْح، يتبيّن أن صَفْح الممكن صَفْحه ليس صَفْحاً بالمعنى الصحيح للكلمة، وإن واجهتْنا معضلة كيفية الصفح عما لا يقبل الصَّفْح. وحدها الإتيقا المفرطة أو المعضلية المستهدفة لجعل المستحيل ممكناً، تحفظ للصَّفْح معناه وإمكانه.

لا ينحصر الصَّفْح، بالنسبة لدريدا، في الخندق البسيط والمتداول



مكتبة الفكر الجديد

الذي رسم جانكلفيتش تضاريسه، كما لا يجب أن يأخذ أبعاداً سياسية وقانونية وتشريعية، إذ ههنا يصبح الصَّفْح عملاً سلساً واعتيادياً، لكونه يخضع لشروط، تُحدّده، إمّا باسم العفو العامّ، أو المصالحة الوطنية، أو الوحدة الوطنية... وهي كلها مفاهيم لا تستقيم وإشكالية الصَّفْح.. ومن جهة أخرى، من الصعب الحديث عن ضرورة معاملة الجاني أو الجلاد بمنطق جريمته نفسه. إذ من المستحيل تطبيق عقوبات لا تحترم إنسانية الإنسان مثل الإعدام. بل إن حتّى العقاب يفقد معناه ما دمنا لا نستطيع معاقبة الجاني بعقاب يتناسب مع حجم جريمته.

إن الصَّفْح في منظور دريدا لا يكون على الشاكلة التي طرحها جانكليفيتش، شاكلة اقتصاد طَلَب الصَّفْح ومَنْحه. يقف دريدا مطوّلاً على جملة المفاهيم التي تدور في فلك مفهوم الصَّفْح، والتي غالباً ما نخلط بينها وبين الصَّفْح: الغفران، التوبة، العفو، الاعتذار، الندم... إن هذه المفاهيم كلها لا تستقيم ومفهوم الصَّفْح، فهو مختلف عنها بكثير، ومتمايز معها. إن الصَّفْح كمفهوم وكعبارة، يتجاوز الحدود والسياقات السياسية والقانونية والدِّينية كلها، فهو ليس مفهوماً سياسياً ولا قانونياً ولا تشريعياً ولا حتى دينياً، رغم أن جذره ينهل من الدِّين مباشرة. يجب تحرير الصَّفْح من القواعد والحسابات والتوظيف السياسي. يجب أن يكون الصَّفْح غير مشروط. " كلما كان الصَّفْح في خدمة غائية حتى لو كانت نبيلة وروحية (إعتاق، افتداء، مصالحة، خلاص) كان ميّالاً إلى استعادة الوضع الطبيعي (اجتماعي، وطني، سياسي، نَفْسي) بعمل حداد، بعلاج ما، أو إيكولوجيا للذاكرة، وكان هو ومفهومه غير خالصَيْن. يجب أن لا يكون الصَّفْح طبيعياً أو معيارياً أو مُطبعاً. يتوجّب أن يبقى استثنائياً وخارقاً للعادة، ومُعرَّضاً لاختبار المستحيل: كما لو كان يعلق السير العادي للزمنية التاريخية."



مكتبة الفكر الجديد

وهكذا فإن نصّ دريدا لا يهدف إلى الوقوف عند سياسات الصَّفْح أو استراتيجيات المصالحة، أو الصيغ القانونية والتشريعية والسياسية التي تروم مجاوزة الماضي والترميم وجَبْر الضرر، بل إنه يقف عند مفهوم الصَّفْح في إمكانياته وحدوده، في استحالته بما هو ممكن، أو في إمكانه بما هو مستحيل، لنقل في كونه مستحيلاً داخل الممكن. إنه تحقيق للمستحيل، بل لنقل بعبارة دقيقة إنه المستحيل ذاته. فكلّما كان الصَّفْح في خدمة غاية معيّنة ومحدّدة، وكلّما نزع إلى إعادة الأمور إلى طبيعتها الاجتماعية والوطنية والسياسية... كلما كان غير خالص. لا ينبغي للصَّفْح أن يكون طبيعياً ومعيارياً ولا تطبيعياً، بل عليه أن يظلّ استثنائياً وخارقاً في احتكاك دائم مع المستحيل ذاته.

الصَّفْح، إذنْ، مفهوم استثنائي. إن الجرائم التي ارتُكبت باسم الإنسان، وفي حقّه، تلك الفظائع والشناعات التي تتجاوز حدود الإنسانية وتطال المجال ما فوق الإنساني وتصل إلى حد الشّرّ الجذري والمطلق، لا يمكنها أن تستقيم والفكرة الساذجة عن الصَّفْح بما هو توافق سياسي أو قانوني أو تشريعي أو دِيني حتّى؛ إن هذه الفظائع تدخل في باب ما لا يقبل التكفير، وما لا يقبل جَبْر الضَّرَر، وما لا يمكن مَحوه، والعضال irrémédiable ، وما لا رجعة فيه irréversible ، وما لا يُنسى inoubliable ، وما لا يُلغى أو يُنقَض irrévocable ، إنها تتجاوز الحدّ النهائي والأخير.

يتعمّد جاك دريدا استعمال مفاهيم نافية، يُحرّكها بشكل يسمح له بإدخالها في باب ما يسمّيه المستحيل أو im-possible؛ ذلك أن هذا الأخير ممكن، ليس لأنه يصبح ممكناً، بل لأنه يكون كذلك، في معناه الجذري، حيث يكون المستحيل ممكناً كمستحيل، يعني الأمر ههنا



مكتبة الفكر الجديد

تحويل الممكن إلى مستحيل، والاعتراف أنه إذا كان المستحيل ممكناً (كمستحيل)، فإن الممكن يكون هو أيضاً بطريقة ما مستحيلاً. وحيث إن الصَّفْح يصبح مستحيلاً أو لا- ممكن im-possible فإنه سيكون ممكناً من داخل منطق المستحيل، بيْد أنه لن يكون كذلك إلا إذا كان خالصاً ونقياً، ولا تشوبه شوائب السياسية أو القانون أو الدِّين. هنا تكمن استحالة الصفح، إنه إمكانية مستحيلة أو لا ممكنة وصفح مستحيل، لكونه لا يخضع لا لشروط ولا لسياقات مؤسّساتية، بل يجب أن يبقى مفتوحاً ومطلقاً، ذلك أنه لا يكون إلا في وضعية وجهاً - لوجه خالصة... ههنا يعلن دريدا الفكرة المُدوّية: إن صَفْح الجريمة التي لا تقبل الصَّفْح يُعدّ تحدّياً للمنطق الجنائي، إنه لا يتعلّق البتّة بالقانون أو السياسة أو المؤسّسة، فهذه كلها مفاهيم تقوقع الصَّفْح داخل نسق مُغلَق مُتّفق عليه سَلَفاً، فتضربه في الصميم، وتزيح عنه وشاح الاستحالة بما هو كذلك.

ولمّا كانت الجرائم ضدّ الإنسانية جرائم بشعة وشنيعة ومتجاوزة للسّلم الإنساني، لتطال حدود ونهاية ما هو إنساني، فإنها تدخل في باب ما يتعذّر وما يستحيل الصَّفْح عنه، لأنها، بكل بساطة، لا تستقيم وإنسانية الإنسان؛ وكونها لا يجب أن يطالها النسيان، ولا يمكن إلغاؤها بمُجرّد تأسيس توافق سياسي أو قانوني، أو مصالحة أكانت وطنية أم دولية. تندرج كل هذه المفاهيم والاستراتيجيات في إطار منطق مغاير ومخالف، هو منطق التوافُق [illegible] تجاوُز الماضي والقَطْع معه. والحال أن هذا الماضي، ماضي [illegible] شاخصاً ومنتصباً وقائماً، لا يجب أن تتجاوزه الذاكرة، أو تنساه.

[illegible] حصول تفاهم بين الضحية والمجرم حول طبيعة [illegible] هنا إلى كلمة "الجريمة"، لأن الأمر سيحيل



مكتبة الفكر الجديد

مباشرة على إمكانية اللا تفاهم. سنحدّد ههنا بشكل دقيق عبارة "ما حدث" و"ما وقع" دونما إشارة سلبية أو إيجابية، "فما حدث" حصل في ظروف وسياقات مختلفة ومتباينة، ومنظورات متناقضة أحياناً، وحيث يكون من العسير جدّاً التقريب بين وجهات النظر المتناقضة هاته، فإن طرفاً ثالثاً يتدخل، فيبدأ مسلسل للمصالحة والتوافق. إن منطق الصَّفْح ههنا غريب كل الغرابة عن المصالحة، بحيث تقضي هذه الأخيرة عليه في نقائه الخالص، وحتى عندما يحدث تمزُّق في هذه العلاقة الغريبة والمستحيلة عندما تنطق الضحية بعبارة: " لن أصفح عنكَ"، فإن تواصل مسلسل المصالحة يبقى ساري المفعول، ويظلّ حاضراً بقوّة داخل هذه العلاقة، بيْد أنه مسلسل لكل شيء ما عدا الصَّفْح.

لا بدّ من التمييز بين الصَّفْح ومسلسل المُصالحة الذي يهدف إلى إعادة الأمور إلى طبيعتها، واستعادة العافية، ذلك أن المصالحة تقتضي النسيان والتجاوُز ومَحو الماضي، في حين أن الصَّفْح يقتضي كما يقول بول ريكور أن تبقى الذاكرة يَقِظَة ومُتيقِّظة، تستحضر الماضي، وتعيش الحاضر بصور الماضي؛ ومن أجل الصَّفْح لا بدّ للذاكرة أن تعمل وتشتغل.

إن ارتباط الصفح بغاية معينة يختزله إلى مجرد استراتيجية سياسية، أو نوعاً من الاقتصاد السيكو - علاجي الذي يهدف إلى إلغاء الذاكرة وطمسها؛ في حين أن الصَّفْح الخالص مغاير لكل شكل من الأشكال السياسية والقانونية والجنائية التي ترفع شعار المجاوزة والمصالحة بغية طَيّ صفحة الماضي، لبدء صفحة جديدة.

إن راهنية موضوع الصَّفْح تجعل من كتاب جاك دريدا دعوة مفتوحة للتأمّل في الفعل الإنساني، وفي العلاقات بين الذوات البشرية.



مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

# الصَّفْح

## ما لا يقبل الصفح
## وما لا يتقادم

مكتبة
الفكر الجديد

نصُّ هذا الكتاب منبثق عن محاضرة، أُلقيت في جامعات كراكوفيا وفارسوفيا وأثينا (١٩٩٧)، وفي جامعات ويسترن كاب وكيب تاون (جنوب إفريقيا) والقدس (١٩٩٨). وهو مطابق في مجمله للحصّة الأولى (١٢ نونبر ١٩٩٧) من سيمينار الذي أعطاه جاك دريدا في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية (EHESS)، باريس، حول "الحنث باليمين والصَّفْح" (١٩٩٧- ١٩٩٩ سيصدر قريباً)، تحت العنوان العامّ: "مسائل المسؤولية" (١٩٩١-٢٠٠٣).

صدر نصّ "فعل الصَّفْح" بداية في:

Cahier de L'Herne Jacques Derrida (Marie –Louise Mallet et Ginette Michaud (dir.), Paris, L'Herne, 2004)

حيث كان جزءاً من مجموعة نصوص غير منشورة بالفرنسية، جمعها جاك دريدا تحت عنوان: "التفكير بطريقة مغايرة - إمكان المستحيل".



مكتبة الفكر الجديد

الصَّفْح، نعم، الصَّفْح (*)

قلتُ "الصَّفْح"، باللغة الفرنسية.

دون شك، أنتم لا تفهمون شيئاً في هذه اللحظة.

"الصَّفْح"

"الصَّفْح" كلمة، "صَفْح"، هذه الكلمة "اسم": يقال "صَفْح" بالمفرد، أو "الصَّفْح". ينتمي هذا الاسم إلى اللغة الفرنسية. نجد مقابله المتجانس تقريباً بالحالة نفسها، وتقريباً بالمعنى نفسه، وباستعمالات متشابهة في لغات أخرى، الإنجليزية مثلاً ("صَفْح" "pardon"، في سياقات، سنحدّدها في اللحظة المناسبة)، على الرغم من أن الكلمة، إن لم تكن لاتينية، فهي على الأقلّ، في نَسَبها المعقّد ذات أصل لاتيني (perdon بالإسبانية، perdao بالبرتغالية، perdono بالإيطالية).

إننا نعثر في أصل هذه الكلمة اللاتيني، وبكيفية أكثر تعقيداً، لتسمح لنا بتناولها مباشرة اليوم، إحالة على "العطاء" و"الهبة". سيلزمنا مرّات عديدة تأجيل مشاكل ومعضلات "الهبة" (كما حاولتُ صياغتها مثلاً في كتاب "إعطاء الزمن"، وخصوصاً في الفصل الأخير المعنون بـ "الاعتذار والصَّفْح")(**) من أجل نقلها، إذا أمكنني القول، إلى مشكلات ولا- مشكلات الصَّفْح التي هي معضلات مشابهة، وفضلاً عن ذلك مترابطة . .

---

*) تحضر كلمة pardon في التداول اليومي بمعنيي المعذرة والصفح. المترجم.

**) "Don et contre – don, l'excuse et le pardon", Donner le temps 1. La fausse monnaie, Paris, Galilée, 1991, p.139. sq. (NdÉ)



مكتبة الفكر الجديد

لكنْ، لا ينبغي لا الانقياد لهذه التماثلات بين الهبة والصَّفْح، ولا بالطبع، إهمال ضرورتها. يتوجّب علينا أن نحاول جعلها، بالأحرى، متمفصلة فيما بينها، وأن نتتبّعها إلى النقطة التي تتوقّف فيها بطريقة فجائية عن أن تكون سديدة. ثمّة، على الأقلّ، بين هبة وصَفْح تلك القرابة، أو ذلك الحلف: فبالإضافة إلى لامشروطيّتهما المبدئية، تتوفّر هذه وذاك، هبة وصَفْح، هبة بهبة، على علاقة أساسية بالزمن، وبحركة الزمنية. ومع ذلك، يبقى الصَّفْح، في ارتباطه بماض، بكيفية معيّنة، لا يمضي، تجربة غير قابلة للاختزال إلى تجربة الهبة، هبة تُمنَح بسهولة أكثر في الحاضر، وفي التقديم أو في وجود الهدية.

قلتُ "تجربة" صَفْح أو هبة، لكن كلمة "تجربة" قد تبدو في الآن مبالغاً فيها أو متسرّعة. يشترك الصَّفْح والهبة، ربمّا، في كونهما لا يتقدّمان أبداً كصَفْح وكهبة أمام المسمّاة اعتيادياً تجربة، وكمثول أمام الوعي أو الوجود، بسبب المعضلات ذاتها تحديداً التي سيتوجّب علينا أخذها بعين الاعتبار؛ على سبيل المثال، المعضلة التي تجعلني عاجزاً على النوال أكثر، أو عن أن تكون ضيافتي أكثر سخاء(*)، إذا ما حصرتُ تفكيري فيها مؤقّتاً، وعن أن أكون حاضراً أكثر في الهدية التي أقدّمها، وفي الترحيب الذي أعرضه، إلى الحدّ الذي أعتقد فيه، بل أنا متأكّد من ذلك، أنني مطالَب دوماً بالتماس الصَّفْح، وطلب الصَّفْح عن عدم تقديم، وعن التقصير الدائم فيما أعطيه، وعن التقصير في الهدايا، وفي حفاوة الاستقبال. دائماً ما يلوم المرء مذنباً، ودائماً ما يكون في حاجة إلى التماس الصَّفْح فيما يتعلّق بالهبة. وتتفاقم المعضلة أكثر إذا ما تمّ الوعي أنه إذا ما طالبنا بالصَّفْح على

---

*) Au cours des années précédentes [de 1995 à 1997(NdÉ)], le même séminaire de l'EHESS ("Questions de responsabilité") avait fait de l'hospitalité – comme de l'hostilité, de l' "hostipital ité" - son thème principal.



مكتبة الفكر الجديد

عدم المنح، وعدم المنح كفاية مطلقاً، فبالإمكان أن نشعر أيضاً بالذنب، وبالتالي بإلزامية الاستصفاح، وعلى العكس من ذلك، بالمنح، بالصَّفْح من أجل ما يُمنح، والذي قد يصير نداء بالاعتراف، سُمّاً، سلاحاً، تأكيداً لسيادة، تأكيداً لقوّة مفرطة. إننا نأخذ دائماً في الوقت الذي نمنح، لقد أكّدنا ملياً، منذ قليل، على منطق المنح – الأخذ المذكور. يجب قبلياً، إذاً، أن نطلب الصَّفْح من أجل الهبة نفسها، يجب ضرورة أن تكون الهبة موضوع صَفْح، والسيادة أو الرغبة في السيادة التي تسكن دائماً الهبة. وبدفعنا للأمر بشكل لا يُقاوَم نحو المربّع، سيكون علينا طلب الصَّفْح عن الصَّفْح، الذي يُعرَّض هو الآخر لخطر احتواء التباس، لا يقبل الاختزال لتأكيد سيادة، إن لم يكن لتأكيد سيطرة.

ههنا هوات تنتظرنا، ودائماً ما ستتربّص بنا – ليس بِعَدِّها حوادث، يجب تفاديها، وإنما مثل العمق، عمق الشيء عينه، المسمّى هبة أو صَفْحاً، الفاقد للعمق. وإذنْ، فلا هبة من دون صَفْح، ولا صَفْحاً من دون هبة، لكنْ، لا هذا ولا تلك هما بالضبط الشيء نفسه. إن هذا الرابط اللفظي للهبة بالصَّفْح، الذي يُعلم في اللغات اللاتينية، لكنْ، ليس في اليونانية، مثلاً، بحسب معرفتي (سيكون علينا التساؤل عن حضور أو غياب الصَّفْح بمعناه الدقيق في الثقافة الإغريقية القديمة: مسألة عظيمة وصعبة)، هذا الرابط اللفظي للهبة بالصَّفْح موجود أيضاً في اللغة الإنجليزية والألمانية. ففي اللغة الإنجليزية: to firgive, forgiveness, asking for forgiveness ونقابل to give, مع to get (هذه الكلمة الإنجليزية العجيبة التي يجب أن تخصّص لها سنوات من الحلقات الدراسية) في to forgive ضدّ to forget: إن فعل الصَّفْح لا يعني فعل النسيان، إنه مشكل آخر من دون عمق؛ في اللغة الألمانية، رغم أن verzeihen تبدو

مشتركة أكثر - Verzeihung, jenen um Verzeihung bitten: طلب الصَّفْح من أحد ما – وهي الكلمة نفسها التي يستعملها هيغل في فينومينولوجيا الروح (سنتدارس هذا الأمر)، رغم أن Entschuldigung هي التي تُستعمل غالباً (بالأحرى بمعنى الاعتذار، وEntschuldbar بالمعنى الملتبس لما يقبل الصَّفْح - ما يقبل العذر، وحرفياً ما يقبل أن يُبرأ، المخفّف، المُعفى من دين مؤجّل). ففي الألمانية، توجد مع ذلك مجموعة معجمية، تحتفظ بهذا الرابط للهبة بالصَّفْح؛ تعني Vergeben فعل "يصفح"، " Ich bitte um Vergebung " ، "أطلب الصَّفْح"، لكن استعمالها مخصّص بشكل عام لمناسبات رسمية، وفي الواقع لمناسبات روحية أو دينية، وهي لا تتكرّر كل يوم مقارنة باستعمال Verzeihen أو Entschuldigen.

يوجد بالتأكيد رابط بين كل استعمالات كلمة "الصَّفْح"، بين الاستعمالات الملقّبة بالعادية واليومية والخفيفة، من جهة (عندما أقول "عذراً" مثلاً حينما أحاول تجاوُز شخص للخروج من المصعد)، وبين الاستعمالات القوية، المفكّر فيها والشديدة. هذا الرابط بين كل أنماط الاستعمالات في وضعيات شديدة الاختلاف، ستكون إحدى مشاكلنا. مشكل سيمانطيقا (هل هناك مفهوم للصَّفْح، مفهوم واحد؟ )، ومشكل تداولية الأفعال اللغوية أو تداوُلية السلوك ما قبل – أو ما فوق لساني. يمتلك لفظ Vergebung بالأحرى، دلالة تتردّد كثيراً، لكن هذا التردّد وهذا الاحتمال، هو مسألة تداوُلية، على نحو صائب، مسألة سياق وفعل اجتماعي، وبشكل متوقّع أكثر، إذنْ، هي الدلالة الدينية (وهي هنا إنجيلية وقرآنية وإبراهيمية إذاً) لغفران الخطايا، مع أن استعمال هذه المجموعة المعجمية(Vergeben, Vergebung, Vergabe)، هو على حدّ سواء

مرن، ومفارق وشاذّ: قد يعني لفظ Vergeben التوزيع السيّئ، وفساد الهبة: Sich etwas vergeben: التّورّط ; كما يعني لفظ Vergabe الصفقة المحصّل عليها، والمناقصة.

"صَفْح": "صَفْح"، هو اسم. يمكننا أحياناً أن نُدخل عليه حرف التعريف، أو نُبقي عليه نكرة (الصَّفْح، صَفْح واحد). بالإمكان إدراجه كفاعل مثلاً، داخل جملة تقريرية: إن الصَّفْح هو هذا أو ذاك، لقد طُلب الصَّفْح من طرف شخص أو مؤسّسة، لقد تمّ منح الصَّفْح أو تمّ رفضه، إلخ. مثلاً: الصَّفْح الذي طلبتْه الأسقفية، والشرطة، والأطبّاء، من أجل سوء المعاملة الذي كان اليهود ضحية له خلال الحرب في فرنسا، أو الصَّفْح الذي لم تطلبه بعد الجامعة أو الفاتيكان، إلخ. ههنا استعمال للكلمة، بِعَدِّها إحالة ذات نمط تقريري – أو نظري. بالإمكان تخصيص خطاب لمسألة الصَّفْح، وفي العمق هو ما نتهيّأ للقيام به (يصبح الصَّفْح، إذاً، بهذا المقياس، اسم تيمة، أو مشكل نظري، ينبغي دراسته في إطار أفق معرفي)، إلا إذا طلب الفاعلون (المحاضر أو مستمعوه) الصَّفْح، أو منحوه، من خلال التناوُل النظري للصَّفْح.

والحال أنه عند افتتاحي لهذه المحاضرة بقولي "صَفْح" pardon، لم تعرفوا، كما أنكم لا تعرفون الآن ماذا كنتُ أفعل، ما إذا كنتُ أطلب الصَّفْح أو، عوض القيام بطلبه، ما إذا كنتُ أذكر اسم الصَّفْح كعنوان لمسألة ما. ذلك أنه يمكننا أن نفهم قبلاً من كلمة "صَفْح"، بمعزل عن كلمات أخرى، بعلامة تعجّب أم بدونها، مع أن لا شيء يُكرهنا على ذلك، إذا لم يفرضه سياق ما، جملة ضمنية كاملة، جملة إنجازية: صَفْحاً! أطلب منكم الصَّفْح، أرجوكم أن تصفحوا عنّي، أرجوكَ أن تصفحَ عنّي، اصْفَحُوا عنّي، أرجوكم: اصْفَحْ عنّي، أرجوكَ.

علّمتُ بشكل عابر، بدء باستطراد مُطوَّل بين هلالَيْن، على هذا التمييز بين أنت وأنتم، من أجل تحديد موقع أو إعلان سؤال، سيظلّ لوقت طويل معلّقاً، لكن كل شيء سيظلّ أيضاً معلّقاً به من دون شكّ؛ إذا لم يكن "أنتم" ضمير احترام أو مسافة، مثل "أنتم" ذلك الذي يقول عنه ليفيناس Lévinas إنه أفضل من "أنت" الذي استعمله بوبير Buber، والذي قد يعني قدراً مبالغاً فيه من القرب أو الألفة، بل من الانصهار، إلى حدّ التهديد بإلغاء التعالي اللامحدود للآخر؛ إذا كان ضمير "أنتم" الوارد في جملة "أطلب منكم الصَّفْح"، "اصْفَحُوا عنّي" ضميراً جماعياً ومتعدّداً، إذنْ، يصبح السؤال حينها سؤال الصَّفْح الجماعي – سواء تعلّق بجماعة الذوات، جماعة آخرين، أو جماعة مواطنين، أو جماعة أفراد، إلخ، أو تعلق منذ الآن، وهو أمر أيضاً أكثر تعقيداً، لولا أنه تعقيد موجود داخل "الصَّفْح"، بتعدّدية هيئات أو لحظات، بهيئات أو لحظات، بأكثر من "أنا" داخل "الأنا". مَنْ يصفح أو مَنْ يطلب الصَّفْح ممّنْ، في أية لحظة؟ ومَنْ له الحقّ في ذلك؟ ومَنْ له سلطة ذلك؟ "مَنْ يصفح عمّنْ؟" ماذا تعني هنا "مَنْ"؟ دائماً ما ستكون هذه هي صيغة السؤال الأخيرة تقريباً، وفي الغالب صيغة السؤال الذي بالتعريف لا يقبل الحلّ. ذلك أنه مهما كان السؤال رهيباً، فمن الممكن أن لا يكون هو السؤال الأخير. سوف نكون مرّات عديدة في مواجهة آثار سؤال مدخلي، سابق زمنياً عن السؤال السالف، وهو السؤال: "مَنْ؟" أو "ماذا"؟ هل يُصفَح عن فرد ما (من أجل خطأ مُرتكَب، حنث باليمين مثلاً، لكنْ، سأحاول أن أبيِّن فيما بعد أن الخطأ، والإساءة، "الأذى، والشّرّ المقترف هو دائماً وبكيفية ما حنث باليمين)، هل يُصفَح عن فرد ما؟ أم يُصفَح عن شيء ما لفرد ما؟ ذلك الفرد الذي، وبكيفية ما، [illegible] البتّة كُلّيّة مع الخطأ ولحظة الخطأ الماضي، ولا حتّى مع الماضي



مكتبة الفكر الجديد

عموماً. لن يكفّ هذا السؤال – "مَنْ؟" أو "ماذا؟" - عن العودة بأشكال متعدّدة، لإرباك لغة الصَّفْح. إنه لن يُربكَ فقط هذه اللغة من خلال مضاعفة الصعوبات المعضلية. إنه سيفعل ذلك أيضاً من خلال إلزامنا أخيراً بالشك في معنى هذا التعارض بين "من" و"ماذا"، أو تعليقه قليلاً، كما لو كانت تجربة الصَّفْح (تجربة الصَّفْح المطلوب، المَرجوّ، الممنوح أم لا)، وربمّا، كما لو كانت استحالة تجربة حقيقية ملائمة، ومستحوذةِ "للصَّفْح"، تُشعر ذلك التعارض بين "مَنْ" و"ماذا" بتعطيله، وبالتالي تعطيل تاريخه وتاريخيته المنقضية.

لكنْ، بين "صَفْح" عبارة "اصْفَحْ عنّي" وبين صَفْح عبارة "اصْفَحُوا عنّي" أو عبارة "اصْفَحُوا عنّا" أو عبارة "اصْفَحْ عنّا" (أربع إمكانيات مختلفة جوهرياً، أربع صور عطاء الصَّفْح بين المفرد والجمع التي ينبغي مضاعفتها، بواسطة كل التبادلات بين "مَنْ" و"ماذا": إنها إمكانيات كثيرة)، فإن شكل هذا السؤال الرهيب الأكثر حجماً، والأسهل تحديداً اليوم، والذي سنبدأ به، سيكون شكلَ مفرد بصيغة الجمع: هل يمكن؟ وهل يحقّ؟ وهل من المناسب لمعنى "الصَّفْح" أن نطلب الصَّفْح من أكثر من واحد، من مجموعة، من تجمّع، من طائفة؟ هل من الممكن الاستصفاح أو منح الصَّفْح لآخر غير الواحد المفرد، عن أذى أو جريمة مفردة؟ هنا تكمن إحدى المعضلات الأولى التي لن نكفّ عن التّخبّط فيها.

وبكيفية معينة، فإنه يبدو لنا أن طلب الصَّفْح أو منحه، لا يمكن أن يكون إلا "فرداً لفرد"، في وضعية وجهاً لوجه، إذا أمكنني القول، دون وساطة، بين ذلك الذي ارتكب الشّرّ الذي لا يقبل التعويض عنه، والمستحيل التراجع عنه، وبين ذلك الذي أو تلك التي خضع (ـت) له، والذي (والتي) يكون



مكتبة الفكر الجديد

الوحيد القادر على فَهْمه، وعلى طلب الصَّفْح، وعلى منحه أو رفضه. قد تبدو عزلة الاثنَيْن هذه، في مشهد الصَّفْح، مانعة معنى أو أصالة كل صَفْح مطلوب جماعياً، نيابة عن طائفة أو كنيسة أو مؤسّسة أو هيئة، من مجموعة ضحايا مجهولة الهوية، وأحيانا ميّتة، أو من ممثّلين عنها، وأبناء أو ناجين. وبالطريقة نفسها، ستجعل هذه العزلة الفريدة للصَّفْح، والتي هي في الواقع سرّيّة تقريباً، من الصَّفْح تجربة غريبة عن مملكة القانون، الجزاء أو العقوبة، والتقدير القضائي، إلخ. وكما يُذكر فلاديمير جانكيليفتش حقاً بذلك في كتاب "الصَّفْح"، فإن صَفْح الخطيئة يُعدّ تحدّياً للمنطق الجنائي(*). حيثما يتجاوز الصَّفْح المنطق الجنائي، فإنه يكون غريباً عن الفضاء القانوني كله، وإن كان الفضاء القانوني الذي ظهر فيه مفهوم الجريمة ضدّ الإنسانية بعد الحرب، ثمّ سنة ١٩٦٤ في فرنسا، ذلك القانون المتعلّق بلا تقادُم الجرائم ضدّ الإنسانية. إن ما لا يقبل التقادُم ليس هو المتعذّر الصَّفْح عنه. أحدّد هنا بسرعة كبيرة، بسرعة مفرطة، حيّزاً نقدياً وإشكالياً، يلزمنا الرجوع إليه بدون انقطاع. ذلك أن جميع تصريحات التوبة التي تتكاثر اليوم في فرنسا (كنيسة فرنسا، تنظيمات الشرطة والأطبّاء - بينما الفاتيكان كدولة لم تقم بعد بذلك، ولا الجامعة رغم بعض الإنجازات الحماسية في المجال المطروح)، تصريحات سبقتْها، بوتيرة وبأشكال متنوّعة في بلدان أخرى، حركات مماثلة – الوزير الأول الياباني أو فاتسلاف هافيل Vàclav Havel وهما يقدّمان اعتذارات إلى بعض ضحايا الماضي، ثم أ[illegible]قفيات بولونيا وألمانيا وهنّ يقمنَ بفَحْص الضمير في أثناء الذكرى ال[illegible] لتحرير أوشفيتز Auschwitz ، المصالحة المباشَرة في جنوب [illegible]ـما حول هيأة الحقيقة والإنصاف التي سندرس تاريخها،

---

*) Vladimir Jankélévitch, Le Pardon, Paris, Aubier, 196[illegible], p 16[illegible]

ونظامها الأكسيوماتي، ومشاكلها(*)، كل أشكال الإظهار العمومي (سواء كانت صادرة عن الدولة أم لا) للتوبة، وفي الغالب "للصَّفح المطلوب"، هي تمظهرات جديدة في تاريخ السياسي، تفقد قيمتها على أرضية هذا الرصيد التاريخي – القانوني الذي كان في أصل تأسيس، واختراع، وتكوين المفهوم القانوني "الجريمة ضدّ الإنسانية" في نورمبرغ Nuremberg خلال سنة ١٩٤٥، مفهوم كان إلى ذلك الحين مجهولاً. وهذا لا يستثني بقاء مفهوم الصَّفْح - أو ما لا يقبل الصَّفْح -، الذي غالبا ما يسلّط عليه الضوء في هذه الخطابات والتعليقات عليها، مباينا لهذا البُعد القضائي أو الجنائي الذي يُنَظّم في الآن نفسه زمن التقادُم أو لا تقادُمية الجرائم. ما لم يأت البُعد غير القانوني للصَّفْح، وللمتعذّر صَفْحه، حيث يجيء لتعليق وإيقاف النظام المعتاد للقانون، ليسجّل ذاته، وليسجّل إيقافه في القانون ذاته. إنها إحدى الصعوبات التي تنتظرنا.

صدر كتيّب لجانكيليفتش بعد كتاب "الصفح" وعنوانه "ما لا يقبل التقادُم"(**) ويضمّ في استهلاله بيتَيْن للشاعر إيلوار Eluard ، تكمن أهمّيّتهما المفارِقة والمستفزّة عملياً، بحسب ما يبدو لي، في إقامة تعارُض بين الخلاص، بل الخلاص على الأرض، وبين الصَّفْح.

يقول إيلوار Eluard:

*لا يوجد خلاص على الأرض*
*طالما أننا نستطيع الصَّفْح عن الجلادين.*

*) J. Derrida, séminaire "Le parjure et le pardon", 1998-1999, Paris, EHESS, séance 1, 2et 3; et "Versohnung, ubuntu, pardon: quel genre?", publié dans Barbara Cassin, Olivier Cayla et Philipe –Joseph Salazar (dir), Le Genre humain, n 43, "Vérité, réconciliation, réparation", Paris, Le Seuil, 2004, p.111-156. (NDE)

**) Cet ouvrage fut publié au Seuil, collection "Points", en 1986, peu après la mort de Jankélévitch, sous le titre L'Imprescriptible, sous-titre: Pardonner? Dans l'honneur et la dignité. Il réunit différents essais et discours de 1948, 1956 et 1971.



مكتبة الفكر الجديد

يحدث في الغالب، وبكيفية غير متعمّدة، أن نربط، سنعود إلى الأمر مراراً، بين التكفير، والخلاص، والفدية، والمصالحة، وبين الصَّفْح. يتضمّن بيتا إيلوار الشعريّان على الأقلّ مزية القطع مع الحسّ المشترك، وهي كذلك مزية أكبر تقاليد الصَّفْح الدينية والروحية - التقليد اليهودي أو المسيحي مثلاً- والتي لا تستثني الصَّفْح أبداً من أفق المصالحة، ومن رجاء الفدية والخلاص، عبر الإقرار ووخز الضمير أو الندم، والتضحية والتكفير.

في كتاب "ما لا يقبل التقادُم"، ومنذ التنويه إلى النصّ المعنون "هل نصفح؟"، والذي يعود إلى سنة ١٩٧١، يستسلم جانكيليفتش، إذنْ، دون أن يقول ذلك بهذه العبارات، إلى شكل من الندم. يعترف جانكيليفتش أن هذا النص يبدو متعارضاً مع ما كتبه قبل أربع سنوات، في كتابه "الصَّفْح" سنة ١٩٦٧. زيادة على ذلك، لقد جاء صدور هذه المقالة السجالية القصيرة "هل نصفح؟" متزامناً مع النقاشات الفرنسية التي جرت سنة ١٩٦٤ حول لا تقادُم الجرائم النازية والجرائم ضدّ الإنسانية. يدقّق جانكيليفتش:

> *في دراسة فلسفية خالصة حول الصَّفْح نشرناها في مكان آخر، يبدو الجواب عن سؤال هل ينبغي الصَّفْح؟ في تناقض مع الجواب المعطَى هنا.* يوجد *بين مطلق قانون الحبّ ومطلق الحُرّيّة الشّرّيرة مَزْقٌ، لا يمكن أن يُفتَقَ Décousue كُلّيّةً*(*). *إننا لم نسعَ*

---

*) "أن تُفتَق" Décousue أو "أن تُخاط مجدّداً" recousue؟ أتساءل عمّا إذا لم يكن الأمر يتعلّق هنا بخطأ مطبعي. عدا إذا لم تكن معرفة فتق خياطة مزق هي قبلاً طريقة للتفكير فيها كحادث خياطة، خياطة مسبقة، وبالتالي قابلة لإعادة خياطة ما، لفعل خياطة من جديد، للإعادة، وهو ما يرفضه جانكيليفتش هنا.



مكتبة الفكر الجديد

*إلى مصالحة لامعقولية الشّرّ مع عظمة قدرة الحُبّ.*
*إن الصَّفْح قويّ كالشّرّ، لكن الشّرّ قويّ كالصَّفْح(*).*

ههنا قضايا ومنطق نبدأ بالكاد في الجدال والتّخبّط بصددهم. يبقى أن نصوص كتاب "ما لا يقبل التقادُم"، بمشاركتها في النقاش حول عدم قابلية التقادُم، تخلص بحسم إلى استحالة وعدم ملاءمة الصَّفْح، بل حتّى إلى لا أخلاقيته. في هذا السياق السجالي والانفعالي، تُقيم هذه النصوص استمرارية بين دلالات يجب أن نميّز بينها بصرامة، جانكيليفتش نفسه يفكّ ارتباطها فيما يسمّيه "دراسته الفلسفية الخالصة"، وهي مثلاً، الصَّفْح، التقادُم والنسيان. يبدأ كتاب "هل نصفح؟" بهذا السؤال: "هل حان وقت الصَّفْح، أو على الأقلّ، وقت النسيان؟". يعرف جانكيليفتش جيّداً أن الصَّفْح ليس هو النسيان، ولا يجب خصوصاً أن يغدو نسياناً. لكنْ، في زخم برهنة سجالية ثرية، وداخل خوف مُروَّع أمام خطر صَفْحٍ قد يفضي إلى إنتاج النسيان، يقول جانكيليفتش "لا" للصَّفْح، بذريعة أنه لا ينبغي للمرء أن ينسى. إنه يحدّثنا إجمالاً عن واجب "لا- صَفْح"، باسم الضحايا. إن الصَّفْح مستحيل. ولا ينبغي أن يتمّ. لا ينبغي الصَّفْح. ينبغي عدم الصَّفْح. يجدر بنا التساؤل، مرّات ومرّات، عن المقصود بكلمة "مستحيل"، وعمّا إذا لم يكن إمكان الصَّفْح، إذا وُجد، يقاس حقاً إلى محنة "المستحيل". إجمالاً يخبرنا جانكيليفتش باستحالة الصَّفْح من أجل ما جرى في معسكرات الموت. يقول جانكيليفتش: "مات الصَّفْح، في معسكرات الموت".

من بين حجج جانكيليفتش كلها التي سيلزمنا الرجوع إليها باستمرار، ثمّة حجّتان أريد التشديد عليهما. هما أيضاً مسلّمتان، لا تبدوان كذلك.

*) V. Jankélévitch, Avertissement à "Pardonner?", L'imprescriptible, op.cit., p. 14-15. (NDE)



مكتبة الفكر الجديد

أ- الأولى، هي أنه لا يمكن منح الصَّفْح، أو على الأقلّ، لا يمكن تخيّل إمكانية منحه، إمكانية الصَّفْح إذنْ، إلا إذا كان الصَّفْح مطلوباً، إذا طُلب بطريقة صريحة أو ضمنية، وهذا الفرق ليس بسيطاً. ستكون دلالة هذا، أن المرء لن يصفح أبداً لفرد ما لا يُقرّ بخطئه، ولا يندم، ولا يطلب الصَّفْح، سواء صراحة أم لا. والحال أن هذا الرابط بين الصَّفْح الممنوح والصَّفْح المطلوب لا يبدو لي تلقائياً، رغم كونه يبدو هنا أيضاً مفروضاً من طرف تراث ديني وروحي للصَّفْح. أتساءل عمّا إذا كان انكسار هذا التبادل أو التناظر، إذا لم يكن فكّ الارتباط بين الصَّفْح المطلوب والصَّفْح الممنوح مطلوباً بصرامة، من أجل كل صَفْح جدير بهذا الاسم.

ب- المسلّمة الثانية، والتي سنجد أثرها باستمرار في عديد النصوص التي سنحلّلها مستقبلاً، هي أنه عندما تكون الجريمة شنيعة جدّاً، وتكون متجاوزة لخط الشّرّ الجذري، أي عندما تتجاوز في الواقع ما هو إنساني، وعندما تصبح فظيعة جدّاً، لا يعود هناك إمكان ما للصَّفْح، لأن هذا الأخير يجب أن يبقى، إذا جاز لي القول، بين بشر، وفي حدود ما هو إنساني؛ وهو ما يبدو لي إشكالياً أيضاً، وإن كان أكثر قوّة وكلاسيكية.

استشهادان يدعمان هاتَيْن المسلّمَتَيْن.

١- يفترض الاستشهاد الأول تاريخاً للصَّفْح. إنه ينطلق من نهاية هذا التاريخ للصّفْح، ويوقتها (سنقول فيما بعد، مع هيغل، نهاية التاريخ بِعَدِّها [illegible])، تاريخُ مشروع إبادة النازيين لليهود. يشدّد جانكيليفتش على ما [illegible] في [illegible] فرادة مطلقة غير المسبوقة والفاقدة للنظير لهذا المشروع، [illegible] على الإطلاق، ستدفعنا إلى التفكير، بكيفية ارتجاعية، في [illegible] هذا التاريخ، ويستعرض ذاته بالضبط انطلاقاً من



مكتبة الفكر الجديد

حدّه النهائي. سيكون "الحلّ النهائي" إجمالاً، إذا جاز لي القول، هو الحلّ الأخير لتاريخٍ ولإمكان تاريخي للصَّفْح – خاصّة، وهنا تتواشج الحجّتان داخل الاستدلال نفسه، وأن الألمان، الشعب الألماني، إذا ما وُجد شيء من هذا القبيل، لم يطلب قطّ الصَّفْح: كيف نستطيع أن نصفح عمّنْ لم يطلب الصَّفْح؟ يتساءل جانكيليفتش أكثر من مرّة. بيْد أنني سأكرّر سؤالاً، لا يجب أبداً أن يغيب عن فكرنا: ألا يكون الصَّفْح ممكناً، بمعناه كصَفْح، إلا بشرط أن يكون مطلوباً؟

هذه إذنْ، وقبل مناقشتها، بعض الأحكام القوية في لائحة حجج جانكيليفتش:

*الصَّفْح! لكنْ، هل سبق لهم أن طلبوا منّا الصَّفْح؟ وحدهما عزلة واستغاثة المذنب قد تعطيان معنى ومبرّرَ وجودٍ للصَّفْح*(*).

إن ضميرَيْ "هم" و"نحن" المتضمَّنَيْن في هذا السؤال يستحقّان بالطبع أن نقوم بعملية تعيين وشرعنة لهما. بالنسبة لجانكيليفتش، كما هو بالنسبة لأكثر من تراث واحد (التراثات الصادرة عنها بالفعل فكرة الصَّفْح، تلك الفكرة التي يحمل إرثها قوّة انبجاس، لن نكفّ عن تسجيل انفجاراته، إرث يتناقض مع نفسه، وينتفض ويشتعل، وقد أقول ببرودة شديدة إنه "يفكّك" ذاته)، واضح، إذنْ، أن الصَّفْح لا يمكن أن يكون ممنوحاً إلا بشرط أن يُميت المذنب جسده، ويعترف بخطيئته، ويندم، ويتّهم نفسه وهو يطلب الصَّفْح، وبالتالي شريطة التكفير، وسعياً إلى الافتداء

*) V. Jankélévitch, L'imprescriptible, op. cit,. p.50-51.

والمصالحة، يتماهى، إذنْ، مع ذاك الذي يُطلَب منه الصَّفْح. وبالتأكيد فإن هذه المسلّمة التقليدية تحتفظ بقوّة كبيرة جدّاً، وبانتظام لا يجادَل. لكنني سأكون باستمرار عرضة لإغراء رَفْضها، باسم الإرث نفسه، وباسم علم دلالات إرث مشترك واحد، علماً أن ثمّة داخل الصَّفْح، وداخل معنى الصَّفْح، قوّة ورغبة وزخماً وحركة، ونداء (سَمُّوا ذلك، كما تريدون) يقتضون أن يُمنَح الصَّفْح، هذا إن كان بالإمكان منحه، حتّى لذلك الشخص الذي لم يطلبه، ولم يندم، ولم يعترف، ولا أصلح ذاته أو افتدى: وينتج فيما وراء ذلك اقتصاد تماهوي، روحي، قد يكون جليلاً أم لا، وفي ما وراء حتّى كل تكفير. أترك هذا الاقتراح في حالة افتراضية، ذلك الاقتراح الذي سيلزمنا الرجوع إليه بدون انقطاع، وبكيفية متواصلة. لنتابع الاستشهاد بهذا النص العنيف، وكأنه محمول بغضب، يشعر به صاحبه كغضب مشروع وكغضبِ العادل:

*الصَّفْح! لكنْ، هل سبق لهم أن طلبوا منّا الصَّفْح؟ وحدهما عزلة واستغاثة المذنب قد تعطيان معنى ومبرّر وجود للصَّفْح. عندما يكون المذنب مكتنزاً، جيّد التغذية، ومزدهراً ومغتنياً بفضل "المعجزة الاقتصادية"، فإن الصَّفْح يكون عبارة عن دعابة ثقيلة. إن الصَّفْح لم يُخلَق أبداً للخنازير ولإناثهم. مات الصَّفْح في معسكرات الموت. إن هولنا ممّا لا يستطيعُ الفهمُ بمعنى الكلمة تصوّره، سيخنق الرحمة منذ نشأتها ... هذا إذا ما كان بمستطاع المتّهم أن يجعلنا نرحمه(*).*

*) V. Jankélévitch, L'imprescriptible, op.cit., p. 51.



مكتبة الفكر الجديد

تأتي بعد ذلك ملاحظات مثقلة بقدر كبير من العنف السجالي والغضب ضدّ الألمان، إلى درجة لا أريد معها حتّى أن يكون لزاماً عليّ أن أقرأها أو أذكرها. أن يكون هذا العنف ظالماً ومسيئاً إلى ما كتبه جانكيليفتش في مكان آخر عن الصَّفْح، فإنه من الصواب الاعتراف بأن جانكيليفتش نفسه كان واعياً بذلك بشكل ما. كان يعرف أنه يستسلم، بطريقة يعتريها الذنب، إلى الغضب والسُّخط، وإن كان هذا الغضب يتظاهر بكونه غضب العادل.

أن يكون قد وعى بهذا، فإن ذلك يظهر مثلاً من خلال مقابلة أجراها أعواماً بعد ذلك، في سنة ١٩٧٧. يكتب جانكيليفتش ما يلي، وهو ما أذكره من جهة، لكي أبيّن فيه عبارة، قد تصلح، لتكون عنواناً، لما أحاول القيام به هنا ("إيتيقا مفرطة"، لا، بل وإيتيقا ما وراء الإيتيقا)، ومن جهة أخرى، لكي أشدّد على التّوتّر المذنب، بقدر أقلّ أو أكثر، الذي يجب علينا مع جانكيليفتش أن نقرّ به، ونسعى إلى الاستصفاح، ذلك التّوتّر أو التناقض بين هذه الإيتيقا المُفرطة التي تنزع إلى دفع المطلب إلى الحدّ النهائي للممكن، وإلى ما بعد هذا الحدّ، وبين هذا الاقتصاد الشائع للصَّفْح الذي يهيمن على السيمانطيقا الدينية والقانونية، بل وحتّى السياسية والسيكولوجية للصَّفْح، لصَفْح محصور في الحدود الإنسانية أو الأنثربو-تيولوجية للندم وللاعتراف بالخطيئة وللتكفير وللمصالحة أو للافتداء. يقرّ جانكيليفتش بالآتي:

> *لقد كتبتُ مُؤلَّفَيْن عن الصَّفْح: الأول بسيط، وشديد العدوانية وسجالي جدّاً، عنوانه: "هل نصفح؟" [ذلك الذي ذكّرنا به سابقاً]، والآخر،*

"الصَّفْح"، وهو كتاب فلسفي، أدرس فيه الصَّفح في ذاته، من وجهة نظر الإيتيقا المسيحية واليهودية. أستخلصُ إيتيقا، يمكن وصفها بالمفرطة [التشديد من عندي] والتي يُعدّ الصَّفْح بالنسبة لها هو الأمر الأسمى؛ ويظهر الشّرّ، من جهة ثانية، دائماً في المكان الأبعد. الصَّفْح أقوى من الشّرّ، والشّرّ أقوى من الصَّفْح. إنها وضعية ليس بمقدوري الخروج منها. هو نوع من الترجح الذي قد يُوصَف في الفلسفة بالديالكتيكي، والذي يبدو لي غير متناهٍ. أؤمن بشساعة الصَّفْح، وبما فوق طبيعته، أظنّ أنني ذكرتُ ذلك أكثر ممّا ينبغي، وربّما بكيفية خطيرة، ومن جهة أخرى، أؤمن بالسلوك الشّرّاني(*).

في المقطع الذي قرأتُه عن التاريخ المنتهي للصَّفْح؛ عن الصَّفْح الذي مات في معسكرات الموت، عن الصَّفْح غير المخصّص للبهائم، أو لأولئك الذين لا يطلبون الصَّفْح، من البديهي أن جانكيليفتش يخضع للمنطق المسمّى "السجالي"، الذي يُبدي منطق الإيتيقا المفرطة مقاومةً ضدّه، ويقاومه إلى أبعد حدّ. يأمر هذا الأخير، على العكس من ذلك، بالاستجابة لدعاء الصَّفْح، حيث لا يكون تحديداً لا مطلوباً ولا مستحقاً، وحتّى الصَّفْح عن أسوأ ما في الشّرّ الجذري.

لا يأخذ الصَّفْح معناه (هذا إذا كان يجب أن يحتفظ بمعنى، وهو ما

*) Cité par A. Gouhier, dans un article sur "Le temps de l'impardonnable et le temps du pardon selon Jankélévitch", publié dans les actes d'un remarquable colloque consacré au pardon, dans Michel Perrin (éd), Le Point théologique. Le pardon, Actes du colloque organisé par le Centre Histoire des Idées, Université de Picardie, Paris, Beauchesne, 1987.



مكتبة الفكر الجديد

ليس مضموناً)، ولا يعثر على إمكانيّته كصَفْح، إلا في الحالة التي يكون مستدعَى للقيام باللا-ممكن (im-possible) ولصَفْح ما لا- يقبل صَفْحه (im-pardonnable).

لكن هذه الفصاحة السجالية ليست مُجرّد بلاغة ظرفية. يتوجّب علينا بالأحرى أخذها على محمل الجدّ، وأن نُعيرها الانتباه نظراً لكونها متعلّقة بالمنطق المهيمن، المنطق الأقوى، الأكثر تقليدية، في سيمانطيقا الصَّفْح الدينية والروحية، والتي تربطه بالندم، والاعتراف، وطلب الصَّفْح، والأهلية للتكفير والافتداء، إلخ. إحدى أكبر الصعوبات التي تنتظرنا بالفعل، تتعلّق بكون الإيتيقا المفرطة، التي ستُوجّهنا أيضاً، تقتفي أثر ذلك التقليد، وفي الآن نفسه هي لا تتوافق معه. كما لو كان هذا التقليد عينه يتضمّن تضارُباً، وقوّة انبجاس افتراضية أو قوّة تفكيك ذاتي، وقوّة مستحيل. إنها ستتطلّب منا مرّة أخرى قوّة التفكير مجدّداً في معنى إمكانية اللا-ممكن، أو لا-إمكانية الممكن. سنتساءل عما إذا لم تكن إمكانية الصَّفْح كصَفْح، إذا ما وُجد، تجد أصلها، بشكل مفارق، حيث يوجد بالفعل ما لا يقبل التكفير يخلص جانكيليفتش إلى أن الصَّفْح يصير مستحيلاً، وإلى أن تاريخ الصَّفْح يتوقّف. سنتساءل عما إذا لم يكن الصَّفْح يبتدئ حيث يبدو أنه ينتهي، حيث يبدو لا-ممكناً، بالضبط في نهاية تاريخ الصَّفْح، في نهاية التاريخ كتاريخ للصَّفْح.

يتوجّب علينا أكثر من مرّة أن نختبر هذه المعضلة الفارغة والجافة من حيث الشكل، لكنها متصلّبة من حيث مطلبها: الصَّفْح، إذا ما وُجد، لا يجب عليه، ولا يمكنه أن يصفح إلا على ما لا- يقبل الصَّفْح، وعلى ما لا يقبل التكفير- وبالتالي أن يقوم باللا-ممكن. إن صَفْح ما يقبل الصَّفْح، وصَفْح الخطأ العَرَضي

وما يقبل العُذر وما يمكن صَفْحه على الدوام، ليس صَفْحاً. والحال أن عَصَبَ حُجَّةِ كتاب "ما لا يقبل التقادُم"، وفي الجزء المُعنون بـ"هل نصفح؟"، هو أن فرادة المحرقة تبلغ أبعادَ ما لا يقبل التكفير؛ وأنه لا وجود لصَفْح ممكن، ولا حتّى لصَفْح ذي معنى، ويُكوِّن معنى، بالنسبة لما لا يقبل التكفير. ذلك أن مسلّمة التقليد المشتركة، في نهاية الأمر، ومسلّمة جانكيليفتش، تلك التي ربّما يجدر بنا وضعها موضع تساؤل، تكمن في وجوب توفّر الصَّفْح أيضاً على معنى، وأن هذا المعنى يجب أن يتعيّن على خلفية الخلاص، والمصالحة، والافتداء، والتكفير، بل أقول حتّى على خلفية التضحية.

لقد سبق لجانكيليفتش بالفعل أن أعلن فيما مضى بصدد المحرقة ما يلي:

> *لا يمكن معاقبة المجرم بما يتناسب مع جريمته: لأن كل الأحجام المنتهية تميل إلى المعادلة قياساً إلى اللانهائي، بحيث يصير تطبيق القصاص من عدمه غير ذي أهمّيّة، إن ما حصل هو حرفياً لا يقبل التكفير. لم نعد نعرف حتّى هوية مَنْ من سَنلومه، ولا من سَنَتَّهِم*(*).

يبدو، إذنْ، أن جانكيليفتش، وعلى غرار آخرين كُثُر، كحنّه آرندت مثلاً، يفترض أن الصَّفْح، بِعَدِّه شيئاً إنسانياً – أؤكّد على هذه السمة الأنثربولوجية التي تقرّر بصدد كل الأشياء، ذلك أنه سيكون من المفيد دائماً معرفة ما إذا كان الصَّفْح شيئاً إنسانياً أم لا – هو دوماً ملازم لإمكانية المعاقبة؛ لكنه طبعاً غير ملازم للانتقام، الذي يُعدّ شيئاً

---

*) V. Jankélévitch, L'imprescriptible, op. cit., p. 29.



مكتبة الفكر الجديد

آخراً غريباً عن الصَّفْح، على حدّ قول آرندت، بل هو ملازم للمعاقبة:

> *يُعدّ العقاب إمكانية أخرى، غير متناقضة بأيّ حال من الأحوال: إنه يشترك مع الصَّفْح في كونه يحاول وضع حدّ لشيء، قد يستمرّ إلى ما لا نهاية دون تدخّل ما. إنه، إذنْ، لشديد الدلالة، إنه عنصر مُبَنْيِن لمجال الشؤون البشرية [التشديد من عندي]، أن يكون البشر عاجزين عن الصَّفْح عمّا لا يستطيعون أن يُعاقِبوا عليه، وأن يكونوا غير قادرين على المعاقبة على ما يتبيّن أنه لا يقبل الصَّفْح(*).*

في كتاب "ما لا يقبل التقادُم" إذنْ، وليس في كتاب "الصَّفْح"، يتموقع جانكيليفتش في هذا التلازم وفي هذا التناسب وفي هذا التماثل وهذا القياس المشترك بين إمكانيات المعاقبة والصَّفْح: لا يعود للصَّفْح معنى، حيث تصبح الجريمة، كجريمة المحرقة، "غير قابلة للتكفير"، متجاوزة كل تناسب مع كل القياسات الإنسانية. إنه يكتب بالفعل:

> *لا يمكن عَدُّ المجزرة العظمى [المحرقة "الحل النهائي"]، بدقيق العبارة جريمة على السّلم الإنساني، ولا حتّى قياساً إلى الأحجام الفلكية والسنوات الضوئية. ولذلك فإن ردود الفعل التي تثيرها قبل كل شيء هي اليأس والشعور بالعجز أمام ما يستحيل جَبْر ضَرَره(**).*

---

*) Hannah Arendt, La condition de l'homme moderne, préface de Paul Ricœur, Paris, Calmann – Lévy, 1961, p. 271.

**) V. Jankélévitch, L'imprescriptible, op. cit. , p. 29.



مكتبة الفكر الجديد

لقد قال "ما يستحيل جَبْر ضَرَره". معلّقاً استشهادي لهنيهة، سأشدّد على هذه العبارة لثلاثة أسباب:

١- السبب الأول. ستكون عبارة "ما يستحيل جَبْر ضَرَره" هي كلمات شيراكChirac، في نصّ سنعود إليه، لتوصيف الجريمة ضدّ اليهود خلال مدّة حكم فيشي Vichy (إذ صرّح: اقترفتْ فرنسا، ذلك اليوم، ما يستحيل جَبْر ضَرَره(*)).

٢- السبب الثاني. سيكون علينا التساؤل عمّا إذا كان "ما يستحيل جَبْر ضَرَره" يعني ما لا يقبل الصَّفْح. لا أعتقد ذلك، كما لا أعتقد أن مفهوم "ما لا يقبل التقادُم"، وهو مفهوم قانوني، ينتمي إلى نظام الصَّفْح، أو يعني ما لا يقبل الصَّفْح. ينبغي، إذنْ، بذل كل ما في الوسع من أجل التمييز بدقّة وبصرامة قدر الإمكان، بين ما لا يقبل الصَّفْح، من جهة، وبين ما لا يقبل التقادُم من جهة أخرى، ولكنْ، أيضاً بين جميع المفاهيم المتجاورة والمختلفة الآتية: ما يستحيل جَبْر ضرره، ما لا يُمحى، العضال، ما لا رجعة فيه، ما لا يُنسى، ما لا يُلغى، ما لا يقبل التكفير. رغم الاختلافات الحاسمة التي تفصل بينها، فإن كل هذه المفاهيم تشترك في خاصّيّة النَّفْي، في "لا" النافية، في "لا" اللاممكن، والذي يعني إمّا "مستحيل، لأننا لا نستطيع"، وإمّا "مستحيل، لأننا لا يجب علينا." أو هما معاً. لكنْ، في الحالات كلها لا يجب و/أو لا نستطيع العودة إلى الماضي. مضى الماضي ، وقع الحَدَث، تمّ الخطأ، وهذا الماضي، وذاكرة هذا الماضي تبقى غير قابلة للاختزال، ولا يمكن معالجتها. إنها إحدى اختلافات الصَّفْح مع الهبة، والتي لا تتعلّق مبدئياً بالماضي. لا نتدارس الصَّفْح أبداً، إذا لم نأخذ بعين الاعتبار

*) Jacques Chirac, Discours prononcé lors des commémorations de la Rafle de Vel' d'Hiv, 16 Juillet 1995 .



مكتبة الفكر الجديد

هذا الوجود - الماضي، وجود – ماض لا يسمح أبداً باختزاله، وتحويله وتعديل صيغته إلى حاضر ماض، أو إلى ماض يقبل استحضاره، أو إعادة استحضاره. إنه وجود ماض لا يمضي، إذا أسعفتْني العبارة. هذا الذي لا يمضي، وأيضاً خاصّيّة عدم تأثّر هذا الماضي وهذا الحدث الماضي الذي يأخذ الأشكال المختلفة التي يتوجّب تحليلها دون كلل، والتي هي أشكال ما لا رجعة فيه، وما لا يُنسى، وما لا يمُحى، وما يستحيل جَبْر ضرره، العُضال، ما لا يُلغى، وما لا يقبل التكفير، إلخ. من دون هذا الامتياز العنيد للماضي في تكوين الزمنية، لا توجد إشكالية أصلية للصَّفْح. إلا إذا كان كل من الرغبة ووعد الصَّفْح، بل وحتّى وعد المصالحة والافتداء، يدل بشكل سرّيّ على هذا التّمرّد أو هذه الثورة ضدّ هذه الزمنية، وأيضاً ضدّ أرخنة، لا يكون لها معنى عدا إذا أخذت بعين الاعتبار ماهية الماضي المذكورة، كينونة الوجود - الماضي، Gewesenheit، هذه الماهية "لما كان" كماهية الوجود عينها. لكنْ، أيضاً حدثية الوجود، "هو الذي كان"، و"هو الذي قد وقع". سيتوجّب علينا في هذا الأفق إعادة قراءة الأفكار كلها، مثل فكر هيغل أو، بوجه آخر، فكر ليفيناس( لدى ليفيناس بشكل مختلف، وفي عدة محطات من مساره)، التي تجعل من تجربة الصَّفْح، ومن الصَّفْح- عنه، ومن صفْح – هذا - عن- ذاك، والمصالحة، إن جاز التعبير، بنية أساسية ووجودية - منطقية onto-logique (ليس فقط إتيقية أو دينية) للتكوين الزمني، وحتّى حركة التجربة الذاتية والبينذاتية، العلاقة بالذات كعلاقة بالآخر، بِعَدِّها تجربة زمنية. إن الصَّفْح، وخاصّيّة القابلية للصَّفْح، هو الزمن، كينونة الزمن بِعَدِّه يتضمّن شيئاً ممّا لا يقبل الجدل، وما لا يقبل التبديل الماضي. لكن ماضوية الحدثية، الوجود - الماضي لشيء ما وقع، لا تكفي لبناء مفهوم "للصَّفْح"- يُطلَب أو يمُنَح. هل من



مكتبة الفكر الجديد

حاجة إلى شيء آخر؟ لنفترض أننا سمّينا هذا الوجود – الماضي لما وقع بالكلمة البسيطة في مظهرها "فعلة". وقعت هناك فعلة (صيغة ماض تفيد بأن شيئا ما قد وقع، وأحد الأفعال، وفعل يتعذر الشك فيه). لكي يكون هناك مسرح للصَّفْح، ينبغي ألا تكون تلك الفعلة، وألا يكون ذلك الحدث كفعلة مُجرّد حدث فقط، شيء ما يحدث، حادثة محايدة، ولا شخصية. ينبغي بداية أن تكون هذه الفعلة قبيحة، فعلة قبيحة، فعلها شخص اتجاه شخص ما، وشرّ، وضَرَر يُورّط فاعلاً مسؤولاً وضحية. بتعبير آخر، لا يكفي وجود حدث ماض، حادثة أو حتّى محنة لا رجعة فيها، لكي يتوجّب الاستصفاح أو الصَّفْح. إذا كان زلزال ما، منذ قرن، قد دمّر ساكنة، أو ابتلع مجتمعاً، إذا كان هذا الماضي شرّاً ماضياً، حادثة يُرثى لها إلى أقصى الحدود، ويتعذّر الشّكّ فيها، لا أحد سيفكّر مع ذلك في الصَّفْح، أو في الاستصفاح من أجل هذا الحدث الماضي، من أجل هذه "الحادثة" – إلا إذا افترضنا تضمّنها لتصميمٍ مُؤذٍ مَا، أو قصد خبيث.

أودّ أن أقول دون مهلة للراحة ولا رحمة، إنه لا ينبغي أبداً هنا كما في أماكن أخرى صرف النظر عن التمييز، وعن الفصل أيضاً. إن تحليل "الصَّفْح"، وتحليل كلمة "صَفْح" لا ينتهي. مجدّداً، إذنْ، ينبغي التمييز، ليس فقط بين الثأر والمعاقبة، وإنما أيضاً بين العقاب أو المعاقبة والحقّ في المعاقبة، ثمّ بين الحقّ في المعاقبة بصفة عامة وبين حقّ المعاقبة القانوني، الشرعية الجنائية. وبإمكان حنّه آرندت أن تقول أيضاً إن الصَّفْح لفظ متلازم "للعقاب" دون أن نستنتج مع ذلك وجود بعد قانوني بالضرورة. المثال المجسّد بامتياز، أقول تجسيد، لصَفْح مطلق وسيادي كحقّ في الصَّفْح، بِعَدِّه حقّ معاقبة، هو حقّ العفو الملكي. بالطبع، فَبَيْن الصَّفْح والعفو (مثلما يكون الأمر بين الهبة و"الرحمة"، "رحمتي التي يكون فرد



مكتبة الفكر الجديد

ما تحتها")، يوجد توافق يأتينا من تاريخ، لا يسبر غوره، من تاريخ ديني وروحي، سياسي، ثيولوجي سياسي، يجب أن يكون في قلب تفكيرنا. إن التقييد الوحيد للصَّفْح في القانون، وفي التشريع القانوني، هو بدون شكّ حقّ العفو، حقّ ملكي من أصل ثيولوجي - سياسي لا يزال قائماً في ديمقراطيات عصرية، وجمهوريات علمانية مثل فرنسا، أو ديمقراطيات شبه علمانية مثل الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يحظى حكّام الولايات والرئيس (الذي يؤدّي اليمين على الإنجيل) بحقّ سيادي في "العفو" (علاوة على ذلك، تستعمل اللغة الإنجليزية في هذه الحالة الكلمة نفسها "pardon" المستعملَة في اللغة الفرنسية).

إن حقّ العفو الملكي المذكور، والسيادة العظيمة المذكورة (وهي سيادة مشتقّة من حقّ إلهي) تضع حقّ الصَّفْح فوق القوانين. إنه بدون شكّ الميزة الأكثر سياسية أو الأكثر قانونية لحق الصَّفْح كحقّ معاقبة، ولكنه أيضاً ما يُحْدِثُ انْقطاعَ نظامِ القانوني - السياسي في القانوني - السياسي عينه. إنه الاستثناء من القانوني- السياسي داخل القانوني- السياسي. لكنْ، ومثلما الأمر دائماً، هذا الاستثناء وهذا الانقطاع سياديان، يؤسّسان ذاك عينه الذي يَسْتبعِدان ويُسْتَثْنَيَان منه. كما الأمر دائما، يكون الأساسي مستبعَدَاً أو مستثنياً من البنية ذاتها التي يؤسّسها. منطق الاستثناء، منطق الصَّفْح كاستثناء مطلق، كمنطق استثناء لا نهائي، هو ما سيكون موضوع تأمّلنا من دون توقّف. لا ينبغي للمرء أن يكون قادراً على قول عبارة "صَفْحاً!"، على طلب أو منح الصَّفْح إلا بكيفية استثنائية إلى أبعد حدّ. وعلاوة على ذلك إذا كنّا نصغي إلى كانط (كما سينبغي لنا أن نفعل غالباً، وخاصّة فيما يتعلّق "بالشّرّ الجذري")، إذا أصغينا إليه بخصوص حقّ العفو، وبالضبط في كتابه عقيدة الحقّ (الجزء الأول من



مكتبة الفكر الجديد

ميتافيزيقا الأخلاق)، في أثناء معالجته للقانون العام، وبداخله لحقّ المعاقبة والعفو(مدخل إلى § ٥٠ والصفحات الموالية)، يحتفظ ما يقوله كانط لنا بمدى كبير، بمجرّد ما ننقله إلى الصَّفْح. إنه يقول لنا بالأساس ما يلي: إن حقّ العفو (ius aggratiandi, Begnadigungsrecht) حقّ تخفيف أو استبدال عقوبة مجرم ما، هو من بين حقوق الحاكم، الأكثر حساسية، الأكثر انزلاقاً، الأكثر مفارقة (das schlüpfrigste). إنه يضيف القدر الأكبر من اللمعان إلى عظمة وسمو الحاكم، إلى السيادة (وسيكون لزاماً علينا التساؤل عما إذا كان يجب أن يكون الصَّفْح "سيادياً" أم لا). لكنه يشكل من هنا أيضاً، بالنسبة للحاكم مخاطرة إتيان الظلم، التصرّف بشكل جائر (unrecht zu tun) في أعلى درجة. لا شيء يمكن أن يكون أكثر ظلماً من العفو. ويضيف كانط هنا تحذيراً أساسياً. إنه يضع حدّاً داخلياً لحقّ عفو الحاكم: لا يمتلك هذا الأخير، ولا ينبغي أن يكون له بأيّ حال من الأحوال، حقّ منح العفو من أجل جريمة مقترفة، لا تستهدفه هو بالذات؛ لا ينبغي أن يمتلك حقّ العفو من أجل جرائم، يقترفها أفراد الرعية ضدّ أفراد آخرين- وبالتالي من أجل جرائم، تتمّ بين مَنْ هم أيضاً أغيار، بالنسبة له. لأن إسقاط العقاب( impunitas criminis ) سيشكل أكبر ظلم اتجاه الرعايا. لا ينبغي أن يمارس حقّ العفو - وبالتالي حقّ الصَّفْح - إلا في حالة جريمة ضدّ الحاكم ذاته، جريمة المساس بشخص الملك (crimen laesae maiestatis) وفي هذه الحالة أن يمارس الحاكم حقّه في العفو إلا بشرط أن لا يشكّل هذا الأخير بأيّ وجه من الأوجه خطراً على رعاياه. وبحصرنا إيّاه بصرامة، يكون هذا الحقّ هو الوحيد المستحقّ لاسم الجلالة، ولاسم حقّ الجلالة (Majestätsrecht).

أقلّ درس يمكن تعلّمه من هذه الملاحظة الأساسية، بجعلها شاملة للصَّفْح، سيكون هو وجوب تخصيص امتياز منح الصَّفْح للضحية ذاتها.



مكتبة الفكر الجديد

لا يجب أن تنبثق مسألة الصَّفْح، كما هي إلا في وضعية رأساً لرأس، أو وجهاً لوجه بين الضحية والمذنب، وليس أبداً من قبل طرف ثالث لفائدة طرف ثالث. هل هذا ممكن؟ هل وضعية (رأساً لرأس، وجهاً لوجه) المذكورة ممكنة؟

ذلك أن الصَّفْح يستلزم ربمّا، منذ البداية، كما لو تعلّق الأمر بفرضية، أن يدخل طرف ثالث إلى المشهد، ومع ذلك، يجب عليه أو قد يتوجّب عليه استبعاده. وفي الأحوال جميعها، وتبعاً حتّى للحسّ السليم، لا أحد يبدو أن له الحقّ في الصَّفْح مكان أحد آخر عن إهانة أو جريمة أو أذى مقترف. لا يتوجّب أبداً الصَّفْح باسم الضحية، وخصوصاً إذا كانت هذه الأخيرة غائبة جذرياً عن مشهد الصَّفْح، إذا كانت متوفية مثلاً. لا يمكن طلب الصَّفْح من أحياء، ومن ناجين، عن جرائم أصبح ضحاياها في عداد الموتى. وأحياناً حتّى الفاعلين أيضاً. تكمن في هذا إحدى الزوايا التي قد تُعالج انطلاقاً منها المشاهد جميعها وتصريحات التوبة والاستصفاح جميعها التي تتكاثر منذ أسابيع قليلة في المجال العمومي (كنيسة كاثوليكية، شرطة، أطبّاء، وربمّا في يوم من الأيّام، مَنْ يدري، الجامعة أوالفاتيكان).

٣- السبب الثالث للتشديد على "المستحيل جبر ضرره": وكما لن أكفّ عن تكراره، لا يُقاس الصَّفْح فقط، إذا ما وُجد، إلا إلى ما لا يقبل الصَّفْح، وبالتالي إلى قياس دون مقياس لاإنسانية ما لا يقبل التكفير، إلى وحشية الشرّ الجذري.

لنعد الآن إلى نصّ جانكيليفتش.

*وهكذا فإن ردّات الفعل التي يُثيرها هي أولاً*



مكتبة الفكر الجديد

*اليأس وشعور بالعجز أمام المستحيل جبر ضرره.*
*إننا لا نستطيع فعل أيّ شيء. [جملة قوية جدّاً:*
*كل شيء يغدو مستحيلاً، بما في ذلك الصَّفْح.]*
*لن نعيد الحياة إلى هذا الجبل الضخم من رماد*
*الرفات البئيس. لا يمكن معاقبة المجرم بعقاب*
*متناسب مع جريمته: لأن كل الأحجام المنتهية*
*تميل إلى المعادلة قياساً إلى اللانهائي. [ما يبدو*
*أن جانكيليفتش يستبعده بكل معنى وحسّ سليم*
*منتم لتقليد ما، هو لا نهائية الصَّفْح الإنساني،*
*ومنتم، إذنْ، إلى خاصّيّة إفراط الإيتيقا التي كان*
*يبدو أنه يستلهمها، ويقول ذلك في كتابه حول*
*الصَّفْح]؛ بحيث يصير تطبيق القصاص من عدمه*
*غير ذي أهمّيّة؛ إن ما حصل هو حرفياً لا يقبل*
*التكفير. لم نعد نعرف حتّى هوية مَنْ سنلومه، ولا*
*مَنْ سنَتَّهم(*).*

إن جانكيليفتش هو مَنْ يشدّد على كلمة "ما لا يقبل التكفير". إنه يريد التأكيد على وجود ما لا يقبل الصَّفْح حيث يوجد ما لا يقبل التكفير، وحيثما يقع ما لا يقبل الصَّفْح، يصير الصَّفْح مستحيلاً. إنها نهاية الصَّفْح وتاريخ الصَّفْح: مات الصَّفْح في معسكرات الموت. سيكون لزاماً علينا، من جهتنا، أن نتساءل، على العكس من ذلك، (في الوقت ذاته داخل مفهوم الصَّفْح وضدّه، داخل وما بعد أو ضدّ فكرة الصَّفْح التي ورثناها - والتي يتوجّب علينا مساءلة إرثها، ربمّا مناقشة الإرث من خلال توارثنا له،

---

*) V. Jankélévitch, L'imprescriptible, op. cit., p. 29.



مكتبة الفكر الجديد

إنه تفكير حول الإرث نباشره هنا)، عمّا إذا كان لا يجب أن يتخلّص الصَّفْح من تلازمه مع التكفير. لنتساءل عمّا إذا لم تكن إمكانية الصَّفْح، وحيثما يظهر الصَّفْح، أمام ما لا - يقبل صَفْحه، تسمّى بالضبط وفقط، مستحيلة، وممكنة فقط في اشتباكها مع اللا-ممكن.

ما دمت أستشهد بهذه الصفحة من كتاب ما لا يقبل التقادُم، "هل نصفح؟" بصدد صَفْح قد يجب طلبه وحول صَفْح قد يكون مات في معسكرات الموت، فإني أعتقد ضرورة الاهتمام أيضاً بما يلي، وهو المتعلّق بانتظار الصَّفْح المطلوب. سيحدّثنا جانكيليفتش أنه كان ينتظر كلمة "صَفْح"، هذه الكلمة التي بدأنا بها (صَفْحاً)! والتي يمكن أن تكون لها قيمة الجملة الإنجازية (صَفْحاً!، أستصفح، اصْفَحُوا عنّي، اصْفَحْ لي)، هذه الكلمة التي تطلب الصَّفْح. سيحدّثنا جانكيليفتش أنه كان ينتظر، كما هو حال آخرين، أن يكون الصَّفْح قد تمّ طلبه، مع إلزامه الضمني بوجوب أن يكون الصَّفْح مطلوباً، يتطلّب أن يكون مطلوباً. وبكيفية معيّنة، من خلال قوله إنه ينتظر، كما هو حال آخرين، وبدون جدوى، كلمة صَفْح، طلب صَفْح، يعترف جانكيليفتش إجمالاً بأنه كان يطلب أن يكون الصَّفْح مطلوباً – سيكون هذا بالتأكيد مشكلة بالنسبة لنا، لكنني كنتُ أريد التشديد هنا على سمة هذا المشهد: إن الصَّفْح مطلوب، إنه من المنتظر أن تكون كلمة صَفْح منطوقة أو ضمنية، مدلولاً عنها في كل الحالات كصَفْح مطلوب. من الأساسي ألا تُقال الكلمة فقط، بل أن تكون مدلولاً عنها، وأن يكون صَفْح - مطلوب مدلولاً عنه، مثل عفو مطلوب، "رحمة" mercy مطلوبة، ومع هذا الصَّفْح - المطلوب، وقبله، تكفير، وخز الضمير، ندم، اعتراف، طريقة في الاتّهام الذاتي، وفي توجيه أصبع متّهم وخاصّ المرجعية، أصبع ذاتي الإشارة، نحو الذات، الشيء الذي يعجز الحيوان عن القيام به، كما يُقال



مكتبة الفكر الجديد

بتسرّع كبير. يُنتظَر من المذنب، لكنْ، يُستلزم أيضاً، أن يقوم بواجبه، أن يدفع ديونه، أن ينطق أو يبدي عبارة "هذا خطئي" التي يذكرها مَنْ يستطيع لطم صدره، ومعترفاً بالجريمة، ينفصل عن الذات المذنبة، عن الذات التي كانت مذنبة. يتوجّب علينا الرجوع مستقبلاً إلى بنية الزمنية هاته - وإلى بنية مرآتية الزمنية. في هاته اللحظة، أذكر هذا الطلب للصَّفْح المطلوب، لكي أقرنه بإحالتَيْن اثنَتَيْن.

وهكذا يكتب جانكيليفتش:

> *[...] طلب الصَّفْح! انتظرنا طويلاً كلمة، كلمة واحدة، عبارات تفهُّم وتعاطف .. هل رجونا هذه الكلمة الأخوية؟(*) !*

أؤكّد على كلمة "أخوي"؛ هذه "الكلمة الأخوية"، ينبغي أن تمُنَح دلالة قوية ودقيقة؛ إنها لا تدلّ فقط على التعاطف أو الحرارة العاطفية، الرأفة؛ إنها تقول تقاسم الإنسانية، الإخاء بين البشر، أبناء يعترفون بانتمائهم إلى النوع البشري، مثلما سيتدقّق ذلك أكثر؛ وإنه لمن الصعب محو التقليد المسيحي العميق لهذه الكونية الإنسانية، العائلية والأخوية، المطابقة لأشياء أخرى، ومن بينها رسالة المسيح، مثلاً في الإصحاح الثالث والعشرين من إنجيل متَّى: "وأمّا أنتم، فلا تدعوا سيّدي، لأن معلّمكم واحد المسيح، وأنتم جميعا إخوة، *unus est enim magister vester ,omnesautem vos fratresestis , pantes de umeisadelphoi este* ..."

*هل رجونا، هذه الكلمة الأخوية! من المؤكّد*

---

*) V. Jankélévitch, L'imprescriptible, op. cit., p.51 .



مكتبة الفكر الجديد

*أننا لم نكن ننتظر أن يُلتمَس صَفْحنا ... لكنْ، لو أتتْنا عبارات تفهُّم، لكُنّا استقبلناها بامتنان، بعيون دامعة. للأسف، عوض التعبير عن ندمهم، أهدانا النمساويون حكماً مخجلاً بتبرئة الجلادين(*)* .

في صفحة لاحقة، وغالباً في مواضع أخرى، يهاجم جانكيليفتش هايدغر بشكل عنيف (مثلاً: "هايدغر مسؤول، يقول روبير مندير Robert Minder بنبرة قوية، ليس فحسب من أجل كل ما تفوه به تحت حكم النازية، وإنما أيضاً من أجل ما سكت عنه سنة ١٩٤٥ (**)"). ستمتلكني الرغبة حينها – هي أولى الإحالتَيْن المعلنَتَيْن – في تقريب هذا القول ممّا قرأه العديد من مؤولي قصيدة سيلان Todtnauberg، التي كتبها كذكرى وشهادة عن زيارته لهايدغر، كأثر لانتظار محبط، لانتظار سيلان Celan لكلمة من هايدغر، قد تكون دلَّت على الصَّفْح المطلوب. لن أجازف بشكل خاصّ بتأكيد أو نَفْي هذا التأويل، واحتراماً لروح أسلوب الحذف في قصيدة سيلان، لن أتسرّع نحو قراءة شفّافة ومتواطئة من هذا القبيل. لا أمتنع فحسب عن ذلك، نظراً لحذر هرمنوطيقي، أو احتراماً لروح القصيدة، بل بالأحرى لأني أريد الإيحاء بأن الصَّفْح (الممنوح أو المطلوب)، وتوجيه الصَّفْح، إذا ما وُجد، يجب أن يبقى ملتبساً إلى الأبد، وبكيفية يستحيل التقرير بشأنها. لا أريد من خلال ذلك أن أقول: ملتبس، مريب، غير واضح المعالم، بل أريد أن أقول: متنافر عن كل تعيين في نظام المعرفة، الحكم المعين نظرياً، تقديم الذات لمعنى قابل

*) Ibid., loc. cit.

**) Ibid., p. 53.



مكتبة الفكر الجديد

للامتلاك. يوجد هنا منطق معضلة، قد يشترك الصَّفْح فيه مع الهبة، من وجهة النظر هذه على الأقلّ، لكنني أترك هذه المماثلة المذكورة في ورشة البحث، أو في وضعية انتظار.

إن ما تقوله قصيدة "طودتنوبرغ" ، والذي يستند إليه المؤوّلون الذين يُسرعون لتحويله إلى سَرْد شفّاف (من قبيل: "سيلان - جاء، هايدغر - لم – يطلب - الصَّفْح – من – اليهود - باسم - الألمان، سيلان – الذي – كان – ينتظر – كلمة - صَفْح، "صَفْح!"، -- صَفْح –مطلوب - رحل- محبطاً - و- جعل - من - ذلك - قصيدة، أودعه – في – إحدى -قصائده") لا، إن ما تقوله القصيدة، من بدايتها هو على الأقلّ ما يلي:

*Arnika, Augentrost, der*
*Trunk aus dem Brunnen mit dem*
*Sternwürfel drauf,*

*in der*
*Hütte*

*die in das Buch*
*- Wessen Namen nahms auf*
*vor dem meinen ? -,*
*die in deis Buch*
*geschreibene Zeile von*
*einer Hoffnung, heute,*
*auf eines Denkenden*
*kommendes*



مكتبة الفكر الجديد

*Wort*
*Im Herzen, [...]*

"أرنيكة، كاسر النظّارات (عرقون) ، ال/شربة من النافورة التي يعلوها/ نرد نجمي،/ في ال/ الكوخ/ السطر في الكتاب/ اسم مَن استُضيف/ قبل اسمي؟-/ السطر المكتوب في / كتاب/ أمل، اليوم، في ال/ عبارة/ القادمة/إلى قلب/ مفكّر(*) [...]

أو بصيغة أخرى:

*أرنيكة، قنطريون،*
*العطش عند النافورة التي يعلوها*
*النرد كأنه نجمة*

*في*
*الكوخ*

*مخطوط في الكتاب*
*(ما الأسماء التي كان يحملها*
*قبل اسمي؟)*
*مخطوط في الكتاب*
*السطر،*
*اليوم، سطر انتظار:*
*مَنْ يفكّر*

---

*) لم أستطع معرفة الشخص الذي عهد إلي بمخطوط هذه الترجمة، وأرجو من المؤلّف أن يتفضّل بمعذرتي.



مكتبة الفكر الجديد

*عبارة*

*آتية*

*إلى القلب(*)، [...]*

مهما كانت الكيفية التي يُؤوّل بها معنى قصيدة من هذا القبيل ووصيتها الضمنية، فإنه يربط توقيع قصيدة (وقصيدة تُوقّع عبر تسمية توقيع في كتاب، اسم متروك في كتاب) بأمل العبارة، أمل كلمة (Wort) تأتي إلى القلب، كلام قادم من قلب كائن مفكّر. مثلما يحدث لماضٍ، لتوقيع ولأثر أسماء متروكة في كتاب شخص آخر، مثل ما هو مُسمّى، هي رجيَّة كلمة قادمة، أم لا، هبة، إذنْ، وهبة الفكر، هبة قادمة أم لا، من مكان أو من كائن مفكّر (/eines Denkeden/ kommendes Wort/ im Herzen - ومن المعروف عن هايدغر كونه يربط غالباً بين Denken وDanken: فعل الشُّكْر، فعل الاعتراف، التعبير عن الاعتراف، الشُّكْر عن الاعتراف، ونفكّر أيضاً في العلاقة بين الرحمة (mercy) والعفو، "منح العفو"، و"طلب العفو")، لكل هذه الأسباب، تنتمي بواعث الهبة والاعتراف أكثر إلى موضوعة القصيدة منه إلى فعلها أو إلى ماهيتها، إلى هبة القصيدة. إن هذه القصيدة تقول في الآن ذاته الهبة وهبة القصيدة، وهبة القصيدة التي هي إيّاها. بسبب أنها تعطي وتأخذ بالقدر نفسه من الماضي الذي يُذكِّر به، ومن الأمل الذي يستدعيه. إنه ينتمي، بتذكيره

---

*) P. Celan, Todtnauberg, dans Strette et autres poèmes, tr. fr. Jean Daive, Paris, Le Mercure de France, 1990, p. 110-111.

من بين أشياء أخرى كثيرة، يمكن القول إن هذه الأبيات الأولى من القصيدة (التي أعطاني إيّاها سيلان يوماً ما) تصف بكيفية أكثر "واقعية" تجربة أيّ أحد يزور "كوخ" طودتنوبرغ، قبل أو بعد موت هايدغر: ليس فقط النافورة والنجم، بل السؤال الذي نطرحه لحظة التوقيع الإلزامي للكتاب الذهبي ...

وبندائه إلى عنصر الهبة. وينتمي، إذنْ، للصَّفْح، إلى الصَّفْح المطلوب، أو إلى الصَّفْح الممنوح، الاثنان في الآن نفسه بلا شكّ، في اللحظة التي يقول التجربة الشعرية في المرّة نفسها كنداء اعتراف (بمعنى الوعي، الاعتراف الذي يعترف ويُقرّ، أو الاعتراف الذي يشكر، الاعتراف كامتنان)، والتجربة الشعرية كهبة وكصَفْح مأمولَيْن، مطلوبَيْن، ممنوحَيْن، من أجل الآخر، باسم الآخر. كما لو كان من غير الممكن وجود تجربة شعرية، تجربة اللسان، بِعَدِّه كذلك، دون تجربة هبة وصَفْح - أكانا مطلوبَيْن، ممنوحَيْن، معطَيَيْن أم لا. إن لنقطة الاستفهام أهمية هنا، والسؤال عن الاسم الآتي قبل اسمي في الكتاب *(wessen Namen nahms auf / vor dem meinen?)* إن الاسم الذي استُضيف قبل اسمي، مع هذه المجانسة الصوتية التي لا تقبل الترجمة، Namen nahms auf، التي تُذكّر بكرم الضيافة (aufnehmen)، الاستقبال المُهدَى للآخر. نقطة الاستفهام، سؤال موجع عن هوية الآخر، عن اسم الآخر الذي سبقني، والذي، أردتُ ذلك أم أبيتُ، عرفتُ ذلك أم لا، أنا مرتبط بالجماعة الغريبة، في جينيالوجيا هذا الكتاب الغريبة. ثمّة وجود لضيْق أو لهذا القلق بخصوص اسم الآخر، بخصوص هذا الآخر الذي سلّمتُ له نفسي مغمض العينَيْن، بشكل منفعل، مهما وقَّعتُ، طالما أن الآخر وقَّعَ قبلي، مؤشِّراً ومُكثِراً التأشير سلفاً على توقيعي، متملّكاً توقيعي قبلاً، كما لو كنتُ أوقِّع دائماً باسم الآخر الذي يُوقِّع أيضاً، بالتالي، عوضاً عني، أوقَّعتُ متضامناً، أو وقَّع هو متضامناً، الذي يُوقِّع متضامناً مع توقيعي الخاصّ، أتمَّتِ الهبة والصَّفْح أم لا، أحَدَثا وأُبطلا، محمولَيْن، من دون حتّى أن أقرّر بشأنهما. ذلك التوقيع المتضامن العميق يلتحم بالقصيدة، وبتجربة اللسان ذاته، كلسان للآخر دائماً، ما كان سيلان يعرفه ويتعرّف عليه بشكل متفرّد للغاية، لكنه أيضاً تجربة للسان (يتوجب

عليَّ أن أقول إنني وقَّعتُ أنا أيضاً هذا الكتاب في الكوخ، بطلب من ابن هايدغر، بالقدر نفسه من القلق، قلق يتعلّق بجميع أولئك الذين وقَّعتُ بعدهم، من دون أن أعرف، أكثر ممّا كان يتعلّق بما خربشتُه أنا على وجه السرعة، الشيئان معرّضان معاً ليكونا خاطئَيْن بشكل متساو، لا بل ليُحْكَم عليهما، صواباً أو خطأ، بكونهما لا يقبلان الصَّفْح). سيتطلّب البدء في التعامل العادل مع "طودتنوبرغ" طبعاً، القراءة المنتبهة للسابق وللاحق، كل واحدة من الكلمات، والقطع بعد كل كلمة، مثلاً "Der Mensch"، الرجل، للإشارة إلى السائق، deutlich، القريبة من (deutsch ربط كلاسيكي، وقد يكون مضرب أمثال)، للإشارة، إذنْ، إلى التمييز المتواطئ للكلمات التي نطقتُ بعد ذلك، بعد أن كانت قد ضجّت الكلمتان Namen وWort ، وهما اسم شخصي وعبارة، في القصيدة، وخاصة المفردة " viel"، عديد، لا يمكن إحصاؤه، لا نهائي العدد، والتي هي المفردة الأخيرة في القصيدة، وعلى ما يبدو، أو هي تصف مجازياً، مثل طُرق أو شيء مبلّل (Feuchtes/viel)، ما هو دفين في المخثة... تنتظر "طودتنوبرغ"، إذنْ، القراءة، الاستقبال – مثل الهبة أو الصَّفْح عينهما، هبة وصَفْح هما القصيدة قبل أن يكونا، احتمالاً، موضوعيها أو موضوع انتظار شاعر لم يتحقّق.

تتعلّق الإحالة الثانية المعلنة بتبادل رسائل جرى خلال ١٩٨٠ و١٩٨١ بين شابّ ألماني وجانكيليفتش بُعيْد صدور كتاب "ما لا يقبل التقادُم". نُشرت الرسائل المتبادلة في عدد من "لو ماغازين ليتيرير" خصّص لجانكيليفتش شهر يونيو من ١٩٩٥ (عدد ٣٣٣). يضع الشابّ الألماني الذي كتب إلى جانكيليفتش كاستهلال لرسالته المحزنة والمؤثّرة كلمات، تعود إلى جانكيليفتش ذاته ("لقد قتلوا ستّة ملايين يهودي. ومع ذلك ينامون جيّداً. يأكلون جيّداً، وعملة المارك في حالة

جيّدة") وتبدأ رسالة ويارد ريفلين Wiard Raveling الطويلة بكيفية مؤلمة هكذا:

*أنا، لم أقتل يهودياً. إن كنتُ وُلدتُ من أبوَيْن ألمانيَّيْن، فهذا ليس خطئي، كما لا فضل لي فيه. لم يطلبْ إذني [بهذا الشكل يطرح منذ البداية السؤال الكبير الذي لا يجب أن يبرحنا أبداً، سؤال الإثم أو سؤال الصَّفْح بحسب الإرث، الجنيالوجيا، جماعية الـ نحن وأي نحن]. أنا بريء تماماً من الجرائم النازية؛ لكني لا أجد في هذا عزائي. ضميري ليس مرتاحاً [...] وأشعر بمزيج من الخجل والشفقة والانقياد والحزن وقلّة التصديق والتّمرّد.*

*لم أعد أنام جيّداً*

*غالباً ما أبقى مستيقظاً خلال الليل، وأفكّر وأتخيّل. تتملّكني كوابيس، لا أستطيع التّخلّص منها. أفكّر في آن فرانك Anne Franck، و "أوشفيتز Auschwitz" و "فرار موت" Todesfuge و "ليل وضباب" (*) Nuit et Brouillard:*

*"Der Tod ist ein Meister aus Deutschland (**)"*

---

*) ترجمة عن الألمانية للاسم المشفر Nacht und Nabel واختصارها NN ، للأوامر التي تضمنها مرسوم الماريشال كيتيل الموقع بتاريخ ٧ دجنبر ١٩٤١ ، والقاضية بمتابعة واعتقال وترحيل جميع أعداء الرايخ الثالث.

**) Wiard Raveling, lettre à V. Jankélévitch, juin, 1980, publiée dans le Magazine littéraire, n. 333, juin 1995, p. 51-58.



مكتبة الفكر الجديد

Todesfuge، كما هو معروف، هو عنوان قصيدة أخرى لسيلان، تحيل بوضوح على معسكرات الموت، وتدوي فيها الجملة " Der Tod ist ein Meister aus Deutschland ". أربع أو خمس مرّات. إثم دون خطأ وندم أو صَفْح مطلوبان قبلياً، بكيفية لا محدودة، نيابة عن الآخر. مزيج من "صَفْح مطلوب"، من دون لفظ "صَفْح"، لكن الأمر هو عينه، ومن احتجاج ضدّ ما يحتّم الإقرار وطلب الصَّفْح، نيابة عن الآخر، من أجل خطأ، لم يقترفه الشخص ذاته. أما عن الكابوس، فإنه ينبّهنا إلى أن الإثم، ومشهد الصَّفْح والحداد الذي لا ينتهي، يبقون دون انفصال. عندما يقول إن "ضميره ليس مرتاحاً"، فإن ويارد ريفلين يعرف أيضاً بلا شكّ أنه يتوجّه إلى مؤلّف كتاب يحمل عنوان الوعي الرديء(*) يشتمل هذا الكتاب على فصل كامل مخصّص لـ "ما لا يقبل التقادُم" وفقرات جميلة جدّاً عن الأسف، والمستحيل جبر ضرره، وخز الضمير والندم. "الوعي الرديء" هو كتاب تعود طبعته الأولى إلى ١٩٣٣ ، وما الكتاب حول الصَّفْح، الصادر سنة ١٩٦٧ ، بعد كل ما أصبحنا نعرفه، سوى شبه تتمّة له.

هذا الشابّ الألماني، ويارد ريفلين، دعا جانكيليفتش أيضاً إلى زيارته وعرض عليه الضيافة (ضيافة، هبة وصَفْح، دموع: هبة ناقصة دوماً، وبالتالي صَفْح، أو مرجوعة وحداد، كل مواضيعنا هي هنا متشابكة):

*إذا ما مررتَ، السّيّد جانكيليفتش العزيز، بالصدفة*
*من هنا، دُقَّ جرسَ باب منزلنا، وادخلْ. مرحباً بكَ.*
*وكُنْ مطمئنّ البال [وتلك سخرية مؤلمة من الرسالة*
*بأكملها]. لن يكون والداي هناك. لن نحدّثكَ عن*

---

*) V. Jankélévitch, L a Mauvaise conscience, Paris, Alcan, 1933 ; repris dans id., Philosophie morale, Paris, Flammarion, 1998 .


مكتبة الفكر الجديد

> *هيغل، ولا عن نيتشه، ولا عن ياسبرز، ولا عن هايدغر، ولا عن كل قدماء سادة التفكير الجرمان. سأسألكَ عن ديكارت وعن سارتر. أحبّ موسيقى شوبيرSchubert وشومان Schumann. لكني سأشغّل أسطوانة لشوبان Chopin، أو إذا كنت تفضل ذلك، أسطوانة لفوري Fauré ولديبوسي Debussy[...]. للإشارة: أنا معجب بروبنشتاين Rubinstein، وأحترمه؛ أحبّ مينحين(*) Menuhin.*

بعد هذه الرسالة الطويلة التي هي في الوقت نفسه شكوى مثيرة للشفقة واحتجاج وبوح ومرافعة وقرار اتهام، توصل ويارد ريفلين بجوابَيْن، نشرتْهما أيضاً مجلّة لوماغازين ليتيرير Le Magazine Littéraire. الأول في البداية لفرنسوا ريجيس باستيد، بتاريخ فاتح يوليوز ١٩٨٠ ، اقتبس منه هذه الجمل القليلة:

> *السّيّد العزيز، لا أستطيع التعبير لكَ، لضيق الوقت، عن شدّة تأثّري برسالتك الموجّهة إلى ف. ج. [...]. أنا صديق قديم لـ ف.ج. لكن موقفه يصدمني في العمق. هذا اللا- صَفْح رهيب. يجدر بنا نحن المسيحيين (حتّى وإن كنّا غير مؤمنين!)، أن نكون مغايرين. إن اليهودي المتعصّب سيّئ، مثله كمثل النازي. لكني لا أستطيع قول ذلك إلى ف. ج. [...]. أنتَ من دون ذرّة شك تُدَرس الفرنسية، ما دمتَ تكتب بشكل جيّد وقوي.*

---

*) W. Raveling. Lettre à V. Jankélévitch,



مكتبة الفكر الجديد

أنا متعاطف تماماً مع كل عبارات رسالتكَ، التي سيعدّها صديقي بكل تأكيد، مفرطة في العاطفية، مصطبغة بـ *Gemütlichkeit* الفظيعة التي قد تبدو له قمّة الرذيلة. لكن الحقّ معكَ أنتَ. لا تحكم على جميع اليهود الفرنسيين قاطبة انطلاقاً من عبارات صديقي القاسية [...].

ما هو أصل اسمكَ العائلي، واسمكَ الشخصي؟ هل هو مَجرِيّ؟ هل ينتمي إلى الفيكينغ؟(*)

الجواب الثاني جاء من جانكيليفتش ذاته. كلمة "صَفْح" غير واردة. لكنه يقول بوضوح إن ما كان منتظراً (تذكرون هذه العبارات: "...طلب الصَّفْح! انتظرنا طويلاً كلمة، كلمة واحدة، عبارات تفهُّم وتعاطُف ... هل رجونا هذه الكلمة الأخوية؟!") قد وصل أخيراً.

السّيّد العزيز، تأثّرتُ كثيراً لرسالتكَ. انتظرتُ هذه الرسالة طيلة خمسة وعشرين عاماً. أعني رسالة تتحمّل تماماً مسؤولية الرجس ومن قِبَل شخص، لا يد له فيه. إنها أول مرّة، أتوصّل فيها برسالة من ألماني، ليست رسالة تبرير ذاتي مُقنَّع بهذا القدر أو ذاك. على ما يبدو إن الفلاسفة الألمان "زملائي" (إذا ما تجرّأتُ على استعمال هذا اللفظ) لم يكن لديهم ما يقولونه لي، لا شيء يستوجب التفسير. ضميرهم الطّيّب كان عديم التّأثّر. [ظلم أو جهل: كما

---

*) François Régis Bastide, lettre à Wiard Raveling, 1 er juillet 1980, le Magazine littéraire, n 333, juin 1995.



مكتبة الفكر الجديد

*لو أن رسالة موجّهة له شخصياً ستكون هي التعويض الوحيد الممكن.]- وفي الواقع لم يعد هناك ما يقال عن هذا الأمر الفظيع. - لم يكن عليّ القيام بمجهودات كبرى، لكي أمتنع عن ربط علاقات مع هؤلاء الميتافيزيقيين البارزين.أنت الوحيد، أنت الأول، ومن دون شكّ الأخير الذي عثر على الكلمات اللازمة خارج التلميع السياسي والصيغ الخاشعة المهيّأة سلفاً. من النادر أن لا يجد الكرم، والتلقائية والشعور الحيّ لغتهم في المفردات التي يستعملها الناس. وهذا حالك. وهو ليس أمراً خادعاً. شكراً [صَفْح مطلوب: هبة تطلب الشُّكْر].*

*لا، لن أذهب إلى ألمانيا لرؤيتكَ. لن أقوم بذلك. لا يسمح سنّي الكبير جدّاً لي بتدشين هذه المرحلة الجديدة. إذ هي بالنسبة لي مرحلة جديدة. انتظرتُ زمناً طويلاً. لكنْ، أنتَ شابّ، وليس لكَ أسبابي نفسها. ليس مطلوباً منكَ عبور هذا الحاجز المتعذّر الاجتياز. بدوري أقول لكَ: عندما تحلّ بباريس، مثل جميع الناس، دُقَّ جرس منزلي [...].سنجلس للعزف على البيانو معاً [ ... ].(*)*

أشدّد على تلميح المراسلين إلى الموسيقى، إلى مراسلة موسيقية، إلى موسيقى معزوفة أو مسموعة معاً، إلى تقاسم الموسيقى. أشدّد على

---

*) V. Jankélévitch, lettre à Wiard Raveling, publiée dans ibid.

ذلك، ليس فقط لأن جانكيليفتش كان موسيقياً، عازفاً وعاشقاً للموسيقى، وإنما أيضاً بسبب وجود،بين ما-بعدٍ معين للكلمة المطلوبة، ربّما، من قبل الصَّفْح (موضوع سنتناوله لاحقاً – موضوع اللغة اللفظية، الخطاب كوضعية كارثية للصَّفْح، الخطاب الذي يجعل الصَّفْح ممكناً، لكنه أيضاً يهدم الصَّفْح)، بين ما-بعدٍ معين للكلمة المطلوبة، ربّما، من قبل الصَّفْح، وبين الموسيقى، بل وحتّى الغناء بدون كلمة، ربّما علاقة انجذاب أساسية، تطابق ليس هو المتعلّق بالمصالحة فقط.

يحكي ريفلين بالفعل أنه زار جانكيليفتش مرّة واحدة، وأن اللقاء جرى بشكل ودّيّ تماماً، لكن مضيفه "كان يتفادى بكيفية منهجية" تناوُل هذه القضايا مجدّداً، بل وحتّى في المراسلات التي أعقبت اللقاء. كان جواب جانكيليفتش يتحدّث عن "مرحلة جديدة"، لا يستطيع ركوبها، لكونه صار "طاعناً في السّنّ": "ليس مطلوباً منكم عبور هذا الحاجز المتعذَّر الاجتياز"، متعذَّر الاجتياز الذي يجب عبوره. بفعل هذا القول، وبكيفية نموذجية تماماً بالنسبة لنا، يتقاطع خطابان فيما بينهما، منطقان، نظامَا أكسيوماتيك متناقضان ومتضاربان، لا يقبلان الصلح، أحدهما، هو بالفعل نظام أكسيوماتيك الصلح أو المصالحة، بينما الآخر هو نظام أكسيوماتيك ما لا يقبل الصلح. إنه يستقبل من جهة فكرة السيرورة، فكرة التاريخ الذي يستمرّ، فكرة الانتقال من جيل إلى آخر، وبالتالي فكرة اشتغال الذاكرة كاشتغال للحِداد الذي يجعل ما لم يكن ممكناً بالنسبة له، أي الصَّفْح، ممكناً في المستقبل. سيكون الصَّفْح جيّداً بالنسبة لكم، بالنسبة للجيل القادم، وسيكون العمل قد أُنجز، عمل الحِداد والذاكرة، التاريخ، عمل السلبي الذي سيجعل المصالحة ممكنة، وكذا التكفير والشفاء، إلخ. لكنه في الوقت نفسه، يدعنا نفهم، عوض قول ذلك صراحة، إن هذا الحاجز



مكتبة الفكر الجديد

– الذي ربمّا ستعبره الأجيال القادمة -، إذا كان مستحيل العبور بالنسبة له، يجب أن يبقى كذلك، ولا يمكنه إلا أن يبقى كذلك.

بتعبير آخر، فإن التاريخ كتاريخ للصَّفْح قد توقّف، ويجب أن يبقى متوقّفاً بالشّرّ المطلق إلى الأبد. لقد توقّف إلى الأبد. ونشعر بهذا الاقتناع المزدوج، الصريح والمتناقض معاً، الذاتي التناقض. إنه لا يشكّ، بل إنه يأمل وبصدق، دون شكّ، أن يستمرّ التاريخ، وأن يكون الصَّفْح والمصالحة ممكنَيْن بالنسبة للجيل الجديد. لكنه وفي الآن نفسه، لا يريد هذا لنفسه، إنه لا يريد ما يريد بالتالي، وما يقبل أن يريده، ما يريد أن يريده، ما قد يريد أن يريده. إنه يؤمن بذلك (كما لو تعلّق الأمر باحتمال مرغوب فيه من دون شكّ) ومع ذلك، لا يؤمن به، إنه يؤمن بأن هذه المصالحة وهذا الصَّفْح سيكونان وَهْمِيَّيْن وكاذبَيْن. لن تكون أصفاحاً حقيقية، وإنما أعراضاً، أعراض اشتغال حِداد، أعراض علاج للنسيان، ولمرور الزمن: وبالجملة، نوع من النرجسية، ومن الإصلاح، والإصلاح الذاتي، من الشفاء المجدّد للنرجسية (وقد يلزمنا في إطار إشكالية الصَّفْح الهيغيلية دراسة منطق التماثل مع الآخر الذي يفترضه مشهد الصَّفْح، من الجانبَيْن، جانب الصافح أو جانب المصفوح، تماثل يفترضه الصَّفْح، لكنه، أيضاً، يفسد ويحيد، يبطل مسبقاً حقيقة الصَّفْح كصَفْح الآخر عن الآخر من حيث هما آخران). إن المستحيل العبور سيبقى كذلك في اللحظة نفسها التي سيكون قد تمّ عبوره. سيبقى الصَّفْح غير- ممكن، ومعه التاريخ، استمرارية التاريخ، حتّى إن صار يوماً ما ممكناً. بماذا نشعر، في عمق رسالة جانكيليفتش – وهو ما أشدّد عليه، لأنه يجب أن يبقى درسَ باراديغم كبيراً لنا؟ نشعر بأن الاقتناع غير متغيّر وغير قابل للتغيير، حتّى لو وقع الصَّفْح عمّا لا يقبل التكفير، في المستقبل، في الأجيال القادمة، فإنه لن يتحقّق حدوثه، إنه سيبقى وَهْمياً،



مكتبة الفكر الجديد

وغير أصيل، وغير مشروع وفضائحي وملتبس وممزوج بالنسيان (وإن كانت ذوات الصَّفْح صادقة وكريمة، واعتقدت كونها كذلك). سيستمرّ التاريخ، ومعه المصالحة، لكنْ، مع لُبْس صَفْح مختلط بعمل حِداد وبنسيان، ومع إدماج للشّرّ، كما لو كان يجب إجمالاً، إذا أمكنني هنا تلخيص هذا التطوّر غير المكتمل في صيغة واحدة، على صَفْح الغد، الصَّفْح الموعود أن يصير، ليس فحسب عمل حِداد (علاج، لا، بل إكولوجيا الذاكرة، كيفية وجود أفضل مع الآخر، ومع الذات، لكي يستطيع المرء مواصلة العمل، التقاسم، ممارسة التجارة، العيش والاستمتاع)، بل أن يصير، بشدّة أكبر، عمل حِداد على الصَّفْح ذاته، وأن يصير الصَّفْح قائماً بحداده عن الصَّفْح. يستمرّ التاريخ على خلفية انقطاع التاريخ، بالأحرى في هوّة جرح لا نهائي، والذي سيبقى، ويتوجّب أن يبقى في الالتئام ذاته، جرحاً مفتوحاً، لا يقبل الإلحام. وعلى أية حال، سيكون علينا غالباً، أن نقيم أو نتحرّك في هذه المنطقة من المبالغة، والمعضلة وحالة المفارقة.

قبل مغادرة نصوص جانكيليفتش، على الأقلّ مؤقّتاً، أودّ الرجوع إلى مفارقة أخرى من مفارقات "ما لا يقبل التكفير"، منطق "ما لا يقبل التكفير"، التي يوظّفها، تحت هذه الكلمة المشدّدة، في كتاب "ما لا يقبل التقادُم". إن لفظ "ما لا يقبل التكفير" مستعمل على الأقلّ مرّتَيْن في وضعية وجهاً- لوجه محيّرة(*). كان جانكيليفتش يقول إن "ما حدث [المقصود المحرقة التي تتحدّى أيّ حكم، أي منطق عقوبة، إلخ.] هو حرفياً لا يقبل التكفير". لقد سبق لجانكيليفتش أن وصف إرادة إبادة اليهود كحركة كراهية فريدة، استثنائية، لا نظير لها، إزاء وجودِ، وجود اليهودي، من حيث إدراك هذا الوجود كخطيئة وجودِ "ما لا يقبل التكفير". يتعلّق

*) V. Jankélévitch, op. cit., p. 22, p. 29, p. 62.



مكتبة الفكر الجديد

الأمر في هذا السياق، تحديداً، بالبُعد الإنساني، المتمركز على الإنسان، الذي ينتظم هذا المشكل – والذي سيهمّنا بالضبط في جانبه الإشكالي، القابل للمنازعة، والذي تسائله فكرة الصَّفْح ذاته.

يذكر جانكيليفتش بالفعل، في مقطع سابق من نصه، وبالأصحّ في بداية الفصل الحامل لعنوان "ما لا يقبل التقادُم" (في الوقت بالضبط الذي انتهى التصويت في فرنسا على لا تقادُم الجرائم ضدّ الإنسانية )، بأن هذه الجرائم تهجم على الماهية الإنسانية، "أو إذا فضّلنا، على "بشرية" الإنسان بصفة عامّة."

> *لم يرغب الألماني [لقد قال "الألماني" وهو يقوم أيضاً بتحويل نَحْوي، وبكيفية إشكالية، لشيء ما كماهية للجرمانية] في هَدْم، بالمعنى الحقيقي للهَدْم، لا معتقدات صُنّفت خاطئة، ولا مذاهب عُدّت مؤذية: إن ما حاولت الإبادة العنصرية إعدامه في الجسد المتألم لهذه الملايين من الشهداء، هو كينونة الإنسان عينها، Esse، الجرائم العنصرية اعتداء على الإنسان من حيث هو إنسان: أبداً ليس ضدّ الإنسان من حيث هو فلان أو عِلّان (quatenus...)، أو من حيث هو هذا أو ذاك، من حيث هو شيوعي مثلاً، أو ماسوني، أو خصم إديولوجي...كلا! كان العنصريّ يستهدف تحديداً إنِّيَّة الكائن، أيْ ما هو إنساني في كل إنسان. معاداة السامية إهانة خطيرة للإنسان بصفة عامّة. كان*

*اليهود مُضْطَهَدِيْن لأنهم يهود، وليس بسبب آرائهم أو دينهم: ما كان مرفوضاً هو وجودهم ذاته؛ لم تنصبّ مؤاخذتهم على اعتناقهم لهذه العقيدة أو تلك، بل انصبّت على كونهم موجودين(*).*

يصل جانكيليفتش ههنا، عبر ثغرة ما لِجاج، لا يُفسّر لنا لماذا يستهدف الاعتداء على إنسانية الإنسان، اليهودي وحده (بل وحتّى إسرائيل، ذلك أنه يوسع مدى الاستدلال نفسه، ليجعله يشمل وجود دولة إسرائيل، بكيفية أقلّ إقناعاً بكثير من الكيفية السابقة)، إلى أن يقلب، بمعنى ما، منطق ما لا يقبل التكفير. إن ما يصير ما لا يقبل التكفير بالنسبة للنازيين، وهذه أيضا عبارة لجانكيليفتش، هو وجود اليهودي عينه. بالنسبة للألماني، للألمان، للنازيين (جانكيليفتش ينتقل بسهولة من لفظ الألماني إلى لفظ الألمان، أو إلى لفظ الآخرين).

*[...] وجوب وجود اليهودي ليس بديهياً: دائماً ما يجب على اليهودي تبرير ذاته، الاعتذار عن كونه يحيا ويتنفّس؛ ويُعَدّ تطلّعه إلى الصراع من أجل الاستمرار والبقاء على قيد الحياة، في حدّ ذاته، فضيحة، لا تُفهم، وتتضمّن شيئاً ما متجاوزاً للحدود؛ فكرة أن يستطيع "من هم دون مستوى البشر" [ التشديد من عندي ] الدفاع عن أنفسهم، تصيب مَنْ هم فوق البشر [ التشديد من عندي ] بذهول ساخط. ليس*

---

*) V. Jankélévitch, L'imprescriptible, op. cit., p. 22.



مكتبة الفكر الجديد

من حقّ *اليهودي أن* يوجد، وجوده هو خطيئته(*).

أنتزع عبارة "خطيئة الوجود" من المقطع، وأشدّد عليها، إنها هنا عبارة سجالية، أُبعِدَتْ قليلاً عن سياقها: "ليس من حقّ اليهودي أن يوجد، وجوده هو خطيئته". ضمنياً: بالنسبة للألماني. أنتزع العبارة، أصدرها خارج سياقها مشيراً إلى أفق عموميتها الممكن، للتّعرّف على إحدى سُبُل إشكالية الصَّفْح – التي ستوضحها بقوّة، وبكيفية كلاسيكية. فضلاً عن ذلك، أفكار لا تقلّ عَظَمَة وتنوّعاً عن أفكار كانط وهيغل ونيتشه وهايدغر وليفيناس وآخرين بلا شكّ: يتعلّق الأمر بصَفْح – مطلوب، ، ممنوح أم لا-، قبلياً، ودائماً مطلوب، بطلب أصلي، لا ينتهي، بسبب إثم أو دين [في العنق]، بسبب استحقاق عقاب، أو إمكان إسناد أصليَّيْن، لانهائيَّيْن، أو غير محدَّدَيْن، بشكل ما. إلى درجة يكون فيها الوجود، أو الوعي، أو الـ "أنا"، وذلك حتّى قبل وقوع أيّ خطأ متعيّن، مخطئاً، وبالتالي بصدد القيام بالاستصفاح، على الأقلّ ضمنياً، ببساطة في آخر الأمر، عن كونه موجوداً. هذا الـ "كونه - موجوداً"، سيكون هذا الوجود في الآن ذاته مسؤولاً ومذنباً بكيفية تكوينية ("خطيئة الوجود")، ولن يستطيع التّكوّن والاستمرار في الوجود والبقاء على قيد الحياة إلا بطلب الصَّفْح (مع معرفة أو من دون معرفة هوية مَنْ سيطلب الصَّفْح، ولماذا)، وبافتراض منح الصَّفْح أو على الأقلّ افتراض أن يكون موعوداً بقدر كاف ومأمولاً، لكي يقدر على الاستمرار، ولكي يُثابر في وجوده، في نفس تكوين وجوده أو وعيه. وبمعية الصَّفْح، ستأتي المصالحة، الافتداء، الإعتاق، من أجل "خطيئة الوجود" المذكورة – التي لن تكون مخصّصة هنا لليهودي، ما عدا إذا كان اليهودي، كما نفهم كلمة يهودي، مؤولاً مرّة أخرى كقدوة لإنسانية الإنسان، مع المشاكل كلها التي قد تترتّب عن هذا التّطلّع إلى

---

*) Ibid., p. 23.

مكتبة الفكر الجديد

النموذجية، والتي تساءلنا هنا مراراً بصددها. في الحالات المذكورة كلها، يمكن أن يكون الصَّفْح مأمولاً على الدوام، مفترض المجيء، كما يمكنه أن يكون مؤجّلاً إلى حدّ اليأس، إذ لو كانت الخطيئة خطيئة وجود، ولو كان الإثم أصلياً ومقيّداً منذ الولادة، ملطّخاً من الميلاد، إذا أمكنني قول ذلك، فإن الصَّفْح، والافتداء، والتكفير ستشملهم الاستحالة إلى الأبد. سنكون جميعاً بداخل "ما لا يقبل التكفير" الذي يتحدّث عنه جانكيليفتش بخصوص اليهودي في منظور الألماني: إذا كان الخطأ يكمن في الوجود هنا، فإن الموت وحده والمَحْقُ وحده، يمكنهما وضع حدّ له، ويتصنّعان الخلاص وتمثيل الإعتاق وإخراس الشكوى أو الاتّهام. بطبيعة الحال فإن المشكل ضخم، وعلينا أن نعود إليه أكثر من مرّة، إذ ينبغي التساؤل عن العلاقة التي يمكن أن توجد بين كل تعيينات "خطيئة الوجود"، ومشهد "فعل الصَّفْح" الأصلي، في ما بينهما أولاً، لِنَقُل في ما بين نمط هيغلي، ونمط نيتشوي، ونمط هايدغيري، أو نمط ليفيناسي في وصف وتأويل هذه البنية. يتوجّب علينا أيضاً التساؤل عن العلاقة التي يمكن أن توجد بين هذه البنية العامة، الكونية والمفترَضة أصلية، لا - حدثية، قبل- حدثية، ومن جانب آخر، الأخطاء المتعيّنة، الجرائم، أحداث الأذية أو الإساءة، حالات حنث اليمين الفعلية التي عليّ أن أتّهم نفسي بها، والتي قد أستصفح من أجلها.

في الصفحة الموالية إذاً، وبرَخْم المنطق نفسه، نُلفي هذا اللفظ "ما لا يقبل التكفير"، ليس لتوصيف جريمة ألمانيا الهتليرية وإنما الكائن - اليهودي ككائن بشري بالنسبة للنازيين. فبالنسبة لهؤلاء إن "جريمة الوجود كيهودي هي جريمة، لا تقبل التكفير. لا يمكن لأي شيء محو هذه اللعنة: لا الانضمام، ولا الإثراء، ولا تغيير الدين(*)".

---

*) V. Jankélévitch, L'Imprescriptible, op . cit ., p.24. (NdE)



مكتبة الفكر الجديد

لدينا هنا حركتان متعارضتان ومتكاملتان، يحملهما اللفظ نفسه، "ما لا يقبل التكفير" (نحن مَدعوون هنا إلى تاريخ هذه الكلمة برمّته، وتاريخ مفهوم التكفيري: ماذا يعني فعل "كفَّر"؟): كما لو أن النازيين كانوا قد تصرّفوا بكيفية هي نفسها لا تقبل التكفير، وراء كل صَفْح ممكن، بسبب تعاملهم مع وجود ضحيتهم اليهودي، كما لو كان جريمة، لا تقبل التكفير (الوجود كيهودي، لا يقبل الصَّفْح). إذا ما وضع في الحسبان حالتي كلمة "ما لا يقبل التكفير" المذكورتَيْن، ومنطقهما، سيقال إن جريمة النازيين تبدو لا تقبل التكفير، لأنهم هم مَن عَدّوا ضحاياهم كمسؤولين عن خطيئة (لا تقبل التكفير) الوجود أو التّطلّع إلى الوجود كبشر. ودائماً ما يقع هذا بخصوص حدّ الإنسان، حدّ الصورة الإنسانية. لهذا السبب، شدّدتُ قبل قليل على كلمتَي دون - البشر وفوق - البشر. فبسبب أنهم عَدّوا أنفسهم فوق - البشر، وعاملوا اليهود كدون - البشر، وبسبب أن النازيين، من الجانبين، ظنّوا أن بمقدورهم تجاوُز حدّ الإنسان، فإنهم قاموا باقتراف هذه الجرائم ضدّ الإنسانية التي لا تقبل التكفير، أي جرائم لا تقبل التقادُم، تبعاً للترجمة القانونية والحقّ الإنساني، وتبعاً لحقّ الإنسان كأفق لمسألتنا.

أؤكّد على هذه النقطة لسببين برنامجيين أو إشكاليَّيْن، وكيفيتان لنعلن اليوم ما سيتوجّب أن يشدّ انتباهنا فيما بعد بكيفية منتظمة. إنهما سؤالان، إذنْ.

١- السؤال الأول. هل الصَّفْح أمر إنساني، خاصّيّة إنسانية، قدرة إنسانية - أم هو مختصّ بالرّبّ؟ ومن هذه اللحظة، انفتاح التجربة أو الوجود على ما فوق - طبيعية، كفوق - إنسانية: إلهية، متعالية أو محايثة، مقدّسة، مطهّرة أو لا؟ النقاشات كلها حول الصَّفْح هي أيضاً نقاشات حول هذا "الحدّ"، واجتياز هذا الحدّ.



مكتبة الفكر الجديد

يمرّ الحدّ المذكور بين ما يُسمّى الإنساني وبين الإلهي، كما يمرّ أيضاً بين ما يُسمّى الحيواني، وبين الإنساني والإلهي.

٢- السؤال الثاني. ولما كان هذا الحدّ ليس حدّاً ضمن حدود أخرى، فإن كل ما يرتهن به سيؤثّر فيه، كما سيؤثّر في هذا الاختلاف - أو هذا التمييز -، الذي سبق أن ذكّرنا به اليوم أكثر من مرّة، بين الصَّفْح الخالص أو اللا مشروط، وبين هذه الأشكال القريبة والمتباينة من العتق، المتباينة فيما بينها، والمفارقة للصَّفْح والموسومة بالعذر، والحسرة، والتقادُم، والعفو إلخ... القدر نفسه من ضروب الصَّفْح المشروط (المدنّس، إذنْ)، ومثله من ضروبٍ قانونية – سياسية أحياناً. بهذا الشكل، كنّا قد فرّقنا من جهة بين الصَّفْح اللا مشروط، والصَّفْح المطلق – لا أقول التبرئة بالمعنى المسيحي- الصَّفْح اللا مشروط مطلقاً، الذي يمنحنا فرصة التفكير في ماهية الصَّفْح، إذا ما وُجد – والذي يتوجّب أن يستغني في النهاية عن الندم وطلب الصَّفْح -، ومن جهة ثانية، الصَّفْح المشروط، ذلك المقيّد في مجموعة من الشروط المتنوّعة، سيكولوجية، سياسية، قانونية خاصّةً (إذ إنه يرتبط بالنظام القضائي، مثلما يرتبط بالنظام الجنائي). لكنْ، وكما سجّلنا ذلك منذ قليل بخصوص حسن الضيافة، فإن التمييز بين اللامشروطية والمشروطية مراوغ بالقدر الذي لا يسمح بتعينه كمجرد تضادّ. إن اللا مشروط والمشروط هما بالتأكيد متباينان تماماً، وإلى الأبد، من جانبَيْ الحدّ الواحد، لكنهما أيضاً غير منفصلَيْن. في حركة الصَّفْح اللا مشروط، وفي مذكّرة الصَّفْح اللا مشروط، يوجد اقتضاء داخلي لصيرورة فعلية، ظاهرة، متعيّنة، وبتعينه، اقتضاء بالخضوع للمشروطية. ما يجعل الظاهرية أو المشروطية القانونية أو السياسية، أقول ذلك الآن بسرعة كبيرة، تكون مثلاً، في الآن نفسه، داخلية وخارجية عن مذكرة الصَّفْح – وهو ما لن



مكتبة الفكر الجديد

يساعد على تبسيط الأمور. لا يكون تلوّث النظامَيْن طارئاً يقبل الاختزال حتّى لو لم يكن معنى "ما لا يقبل التقادُم" هو معنى "ما لا يقبل الصَّفْح". يسري هذا الأمر على كل تمييز، يتوجّب القيام به. بفضل هذا السمنار، استأنسنا قليلاً بشكل هذا القانون – مفهومان متباينان جذرياً وغير منفصلَيْن: شهادة/حجّة؛ حسن ضيافة لا مشروطة/مشروطة، إلخ.

لقد بدأنا بِعَدِّ الحالات التي كان اسم "صَفْح" ينتمي فيها إلى جملة إنجازية (صَفْحاً! أطلب منكَ، أطلب منكم الصَّفْح، نطلب منكَ، نطلب منكم الصَّفْح). لا يمكن أن يستعمل هذا الاسم في اللغة الفرنسية بمفرده (صَفْحاً!) في فعل كلامي إنجازي إلا بمعنى "الصَّفْح المطلوب"، ولا يُستعمل أبداً في حالة الصَّفْح الممنوح أو المرفوض. والحال أننا سنضطرّ مرّات عديدة إلى التساؤل عمّا إذا كان من الواجب حقاً التّقدّم بطلب الصَّفْح، على خلفية إقرار أو ندم، أو لكي يمُنَح هذا الصَّفْح أو يُحتمَل منحه على الأقل. إن وجوب طلب الصَّفْح ليس تلقائياً، بل من المحتمل جدّاً وجوب استثنائه كأولى أخطاء مَنْ يمنح الصَّفْح؛ إذا ما منحت الصَّفْح بشرط أن يعترف الآخر، ويبدأ في إعتاق ذاته، وتجاوُز خطئه، والانسلاخ عنه بغرض الاستصفاح، فإن صَفْحي يبدأ في التّلوّث بمقايضة تُفسده.

ثلاث نقط حذف، قبل الختم، على طريق سؤال مقترن بما سبق، لكنه ليس أقلّ أهمّيّة. ألاّ تكون إعادة التّملّك قد بدأت، بمجرّد ما ينطق أيّاً كان بكلمة "صَفْح!" - إنجازية الصَّفْح كفعل كلام -؟ إن سيرورة الحِداد والافتداء والمقايضة التحويلية تُلقي بنا، من خلال اللغة، وتقاسم اللغة (بهذا الصدد، ينبغي قراءة هيغل مجدّداً)، نحو اقتصاد مصالحة، يجعلنا ببساطة نتوقّف عن التفكير في الشّرّ عينه، أو يجعلنا نعدمه، وبالتالي



مكتبة الفكر الجديد

التفكير في ما لا يقبل الصَّفْح الذي هو المتلازم الممكن الوحيد لصَفْح جديد بهذا الاسم، صَفْح متفرّد تماماً، كحدث فريد، فريد، لكنه يقبل الإعادة والتكرار ضرورة، كما هو الحال دائماً؟ ينتج قانون الوحدة المتكرّرة، الموعود للتكرار، والمنقسم بالوعد الذي يسكن كل صَفْح، الآثار الأكثر مفارقة، إن لم يكن منطلقاً منها: إذا لم يكن ثمّة معنى لطلب الصَّفْح بشكل جماعي من مجتمع أو عائلة أو جماعة إثنية أو دينية، فإن كل من الكثرة والغير والشاهد يبقون، في الوقت نفسه، منذ البداية جزء من اللعبة. إنه ربمّا أحد الأسباب، إن لم يكن السبب الوحيد، التي غالباً ما يُطلَب من أجلها الصَّفْح من الإله. يطلب الصَّفْح من الإله، لا لاحتمال كونه الوحيد القادر على الصَّفْح، وعلى استطاعة - صَفْح بعيد المنال بالنسبة للإنسان بوجه آخر، وإنما، في غياب تفرد ضحية أحياناً ما لا تكون على قيد الحياة، لتلقّي الطلب، أو لمنح الصَّفْح، أو في غياب المجرم أو المذنب، لكون الإله هو الاسم الوحيد، إنه اسم لاسم تفرّد مطلق، وقابل للتسمية بوصفه ذاك. اسم النائب المطلق. اسم الشاهد المطلق، اسم superstes المطلق، اسم الشاهد الناجي المطلق. لكنْ، وبالعكس، إذا كانت وجهة الصَّفْح (أقول دوماً وجهة الصَّفْح للإشارة في الوقت نفسه إلى فعل الاستصفاح، توجيه الاستصفاح، وإلى المحلّ الذي انطلاقاً منه، يُمنح الصَّفْح، أو لا يُمنح، بعد أن يكون الطلب قد استقبله مُتلقّ الطلب)، إذا كانت هذه الوجهة إذنْ، متفرّدة دائماً، متفرّدة في ما يتعلّق بالخطأ والخطيئة والجريمة والضّرر، ومتفرّدة فيما يتعلّق بالفاعل أو بضحيّته، فإنه ينبغي على الأقلّ الاعتراف بكونها تستدعي لا التكرار فقط، ولكنْ، أيضاً، عبر هذا التكرار أو مثله، لا تحقيق الذاتية، تكاثر تشتّتي، يتوجّب علينا تحليل كل جهاته.

ثلاث نقط حذف، إذنْ.

مكتبة الفكر الجديد

١. لماذا بدأتُ بكلمة "صَفْح" وحدها، باسم "صَفْح" كان من المستحيل في البداية، خارج السياق، معرفة أو تقرير ما إذا كنتُ سأذكر، ما إذا كنتُ سأشير إلى اسم أو إلى موضوع أو إلى مشكل، أو ما إذا كنتُ أطلب منكم الصَّفْح، على نمط فعل الكلام، ليس من خلال ذكر الاسم، وإنما من خلال استعماله (تبعاً للتمييز mention/use في الـ speech act theory) بدأتُ بهذه الكيفية، ليس فقط لأن لديّ عدداً لا محدوداً من الأسباب، تجعلني أستصفحكم (وخاصّة الصَّفْح عن الاحتفاظ بِكُمْ لوقت طويل: دائماً ما يكون أول خطأ لأيّ شخص يطلب الصَّفْح هو: اعتقاده أن من حقّه إثارة اهتمام الآخر، وشدّ انتباهه: "أنصتْ إليّ، أستصفحكَ، انتظرْ، لا تذهبْ، أستصفحكَ، انتباه، انتبهْ إليّ، أطلبُ صَفْحكَ"؛ ومن الممكن أن يتحوّل هذا إلى استراتيجية بغيضة أو مقايضة بغيضة وسخيفة لإماتةٍ لِنفس زائفة، قد تنتهي بذرف الدموع؛ وأنتم تعرفون جيّداً الوضعيات التي يزعجكم الشخص الذي يقوم بهذا الفعل، وحينذاك تتظاهرون بالصَّفْح عنه لتغيير الموضوع وإنهاء المناقشة: "ok, give me a break"، أنا لا أتّهمكَ حتّى، اتركْني لحالي، موافق، أصفح عنكَ، لكني لا أريد رؤيتكَ مرّة أخرى ...، لي مشاغل في موضع آخر، لنُغيّر الموضوع، أنا حتّى لا آخذكَ على محمل الجدّ كفاية، لكي أتّهمكَ).

لا، بدأتُ بهذا الشكل، لأذكر لفظاً إنجازياً (لا بغرض ذِكْر، ولا بغرض استعمال، بل بغرض ذِكْر استعمال) بغية إثارة انتباهكم إلى مسألة الكلمة، الكلمة الإنجازية ككلام، كفعل (عفواً، أطلب منكَ منكم المعذرة). مثل جميع الناس، مثل جميع أولئك الذين ينتظرون ويعتقدون وجوب انتظار أن يطلب الصَّفْح، هي كلمة صَفْح، فعل، اسم - فعلي، ما كان ينتظره جانكيليفتش ("انتظرتُ هذه الرسالة طيلة خمس وثلاثين سنة"، "هل



مكتبة الفكر الجديد

سبق أن طُلب منّا الصَّفح؟")، بل إن ما كان ينتظره سيلان أيضاً، بحسب مترجميه، هو كلمة (von/einer Hoffnung, heute,/ aufeines" Denkenden/ kommendes/ wort/ im Herzen") .... هل يجب أن يمرّ الصَّفْح عبر كلمات أو يُمَرِّر الكلمات؟ هل يجب أن يمرّ عبر كلمات – أفعال؟ أم يجب عليه أن يُمَرِّرها، هذه الكلمات – الأفعال؟ ألا يمكن الصَّفْح أو طلب الصَّفْح إلا من خلال الكلام، وتقاسم لسان الآخر، أي من خلال التماهي قبلاً مع الآخر لتحقيق ذلك، ومن خلال التماهي إلى حدّ المخاطرة بجَعل الصَّفْح ممكناً ومستحيلاً في الوقت نفسه؟ هل يجب رفض تجربة الصَّفْح على كل مَنْ لا يتكلّم؟ أم على العكس من ذلك، يجب اعتبار الصمت هو ذاته عنصر الصَّفْح الأساس، إذا ما وُجد؟ إن هذه المسألة ليست فقط مسألة الموسيقى التي أشرتُ إليها قبل لحظة؛ إنها أيضاً، مسألة الحيوان و"خاصّيّة الإنسان" المزعومة، حتّى وإن لم تكن فقط كذلك. هل الصَّفْح خاصّيّة للإنسان؟ أم للإله؟ يبدو أن هذه المسألة تستثني الحيوان، ما يُسمّى بتلك الكلمة المبهمة العامّة "حيوان"، أو حتّى حيوانية البهيمة أو الإنسان. لكننا نعرف أنه من التّهوّر بمكان أن ننفي عن كل حيوانية القدرة على بلوغ أشكال من الاجتماعية، تتضمّن بطريقة شديدة التفاضل الإثم، وبالتالي إجراءات جَبْر الضَّرَر، لا، بل وحتّى العفو المطلوب أو الممنوح. ثمّة بلا شكّ للبهيمة رحمة. إن معرفتنا تزداد يوماً بعد الآخر، بكون بعض الحيوانات تُظهر ما يمكن تأويله كفعل حرب، وكاتّهام عدواني، كما تُظهر أيضاً الإثم والخجل والحرج والندم والقلق أمام العقوبة، إلخ. من المؤكّد أنكم شاهدتُم حيوانات خجولة، تبدي علامات "الإحساس بالذنب"، وبالتالي بوخز الضمير وبالندم، وتخاف الحكم أو العقاب، وتختبئ أو تُعرّض نفسها لِلَّوم أو للجزاء. من المعلوم



مكتبة الفكر الجديد

كذلك أننا نلاحظ، في رمزية - أحياناً ما يبالغ فيها - المعارك والحروب، والمبارزات بين الحيوانات، حركات، بل وحتّى طقوس مصالحة، وانقطاع الأعمال العدائية، والسلم، لا، بل والعفو، عفو مطلوب، وأحياناً ممنوح. في اللحظة التي يكون حيوان ما، إن صحّ القول، تحت رحمة حيوان آخر، فإنه قد يقرّ بهزيمته، ويُصدر علامات استسلامه للآخر الذي يكفّ عنه حينئذ بتفوّق سيادي، كدليل سِلْم.

بعض الحيوانات تتحارب وتتسالم. ليس جميعها، وليس دائماً، كما أن هذا ليس هو حال البشر أيضاً. إذنْ، وبدون خلط الأشياء ومحو أنواع الانقطاعات كلها التي تطرأ بمناسبة استعمال لغة لفظية، لا يمكن نفي هذه الإمكانية، لا، بل هذه الضرورة للصَّفْح خارج - ما هو لفظي، لا، بل خارج ما ليس – إنسانياً.

٢. سيكون علينا التّخبّط دون توقّف (بلا انقطاع، بلا فتور) في شباك معضلة، قد يكون شكلها المجرّد والجاف، وقد تكون شكليتها المنطقية متصلّبة بقدر ما هي رافضة للجدل بشأنها: لا صَفْح، إذا ما وُجد، إلا لما لا - يقبل الصَّفْح. إذنْ، فالصَّفْح، إذا ما وُجد، ليس ممكناً، لا يوجد كشيء ممكن، ولا يوجد إلا إذا استثنى ذاته من قانون الممكن، إلا إذا سلب - إمكانهs’im-possibilisant، إذا أمكنني القول، وفي التّحمّل اللانهائي لسلب - الممكن كمستحيل؛ وهنا يكمن ما قد يشترك فيه مع الهبة. لكنْ، فضلاً عن تكليفه لنا بمحاولة التفكير بشكل مغاير في الممكن، وفي سلب - الممكن، بل وفي تاريخ ما يُسمّى الجائز والـ "قدرة" في ثقافتنا وفي الثقافة كفلسفة أو كمعرفة، فإن من الواجب التساؤل، عبر تكسير التناظر أو التماثل بين الهبة والصَّفْح، عمّا إذا لم يكن استعجال الصَّفْح



مكتبة الفكر الجديد

مسلوب - الإمكان هو ما تقدّمه، تجربة تحمل سلب - الممكن، غير الواعية، في البدء ليُضرب عنه صَفْحاً، كما لو كان الصَّفْح، أبعد من أن يكون تعديلاً أو تعقيداً ثانوياً أو طرياناً للهبة، في الحقيقة هو حقيقتها الأولى والنهائية. الصَّفْح كحقيقة مستحيلة لهبة مستحيلة. قبل الهبة، الصَّفْح. قبل سلب - الممكن المذكور، وكمستحيل لـ"سلب – الممكن - هذا"، الآخر. الآخر المستحيل. لقد فهمتُم أن هذا - الخطاب سيكون أيضاً تفكّراً في الممكن وفي الـ سلب الذي يتقدّمه، لسلب - ممكن، لا هو سلبي، ولا هو لا سلبي، ولا هو جدلي. إن رهان هذه الأسئلة ليس سوى مجمل تاريخ فلسفة "الممكن"، والقوّة والقدرة، وخصوصاً "أنا أقدر" والإِنِّيَّة في جميع الألسن الأوروبية (الإغريقية، اللاتينية، الألمانية، الإنجليزية، إلخ).

٣. أخيراً، الحنث باليمين. يتوجّب عليّ اليوم أن أبرّر تمفصل (التمفصل المقترح في عنوان هذا السمنار) الصَّفْح والحنث باليمين. صَفْح/ حنث باليمين: كما تتخيّلون ذلك، إذا ربطت بين هذَيْن الاسمَيْن، فليس كرجع صدى لمسرحية "أندروماك" Andromaque ("أعطوني كل الأسماء المعدّة للحنث باليمين" (IV ,٥))، وليس لأن "بالمقطع اللفظي par تبدأ، إذنْ، هذه الكلمات"، كما كان قد قال الشاعر المَدعوّ Ponge، قصيدة La Fable لبونج، التي أقلّدها هنا بطريقة ساخرة، ("بكلمة par يبدأ، إذنْ هذا النص/ الذي يقول أول سطر منه الحقيقة")، قصيدة Fable ذات الصلة مع ذلك، بمشهد الصَّفْح مادامت تدور من جهة أولى حول حكم، ومن جهة ثانية حول كسر مرآة، حول انقطاع التماهي المرآتي: "بالكلمة Par يبدأ، إذنْ، هذا النص/ الذي تقول بدايته الحقيقة/ لكنْ، هل يمكن لزئبق المرآة تحت هذه وتلك/ أن يكون



مكتبة الفكر الجديد

محتملاً؟ / ها أنتَ تحكم، أيّها القارئ العزيز/ هنا على صعوباتنا ... بعد سبع سنوات من الشقاء/ قامت بكسر مرآتها(*)".

يُطلَب من القارئ، المعيّن كقاض ("احكمْ": فعل إنجازي وتقريري)، أن يصفح - وهي ربّما الحقيقة التي يتحدّث عنها النص كحقيقة لكل مشهد كتابة وقراءة: طلب الصَّفح من القارئ عبر الاعتراف بالخطايا، نكتب دائماً بغية الاعتراف بالخطايا، ونكتب دائماً من أجل طلب الصَّفْح، اعذروا استشهادي بكلامي بكيفية تقريبية. من دون شكّ أيضاً أننا لا نزال نُدرِّس للحصول على الصَّفْح (أعتقد أن هذا السبب هو ربّما الذي سيجعلني، من الآن فصاعداً، لا أغيّر عنوان هذا السيمينار طيلة الوقت الذي سيستغرقه). إذا كنتُ ربطتُ بين الصَّفْح وبين الحنث باليمين، فليس للبدء بكلمات مسبوقة بـ ...par وإنما لسبب أذكره هنا أيضاً بأسلوب جافّ، قبل العودة إليه لاحقاً. أرسم خطاطة هذا الأخير في سمتَيْن.

أ- أي خطأ، أي جريمة، وكل ما يمكن أن يكون موضوع صَفْح أو موضوع طلب صَفْح، هو حالة حنث باليمين، أو هو يفترض حالة حنث باليمين؛ جميع الأخطاء والشرور هي في البدء حنث باليمين؛ أي نقض لوعد ما (ضمني أو صريح)، نقض لالتزام ما، ونقض لمسؤولية ما أمام قانون، أقسمنا باحترامه، والذي يُفترَض فينا أننا أقسمنا باحترامه. يتعلّق الصَّفْح دوماً بحنث باليمين - ولذلك يتوجّب علينا التساؤل عن معنى الحنث باليمين والجحود والرّدّة واليمين والتّضرّع، إلخ. وماذا يعني قبل كل شيء فعل القَسَم، وحلف اليمين، والوعد، إلخ.

---

*) [Francis Ponge, " Fable ", Proêmes, dans Bernard Beugnot (éd.), Œuvres complètes, t . I, Paris, Gallimard, coll. " Bibliothèque de la Pléiade ", 1999, p. 176(NdE)].

أقترح قراءة لهذه القصيدة في النصّ الأول من:

Psyché, Inventions de l'autre, t . I, nouv. éd. augmentée, Paris, Galilée, 1998, p. 17 sq.



مكتبة
الفكر الجديد

ب- السمة الثانية، وهي متناقضة ومستحيلة أكثر، إذا أمكن ذلك. إن الحنث باليمين ليس عَرَضياً، وليس حَدَثاً يطرأ أو لا يطرأ بعد وعد أو قَسَم مسبق. إن الحنث باليمين مقيّد مسبقاً، مثل قَدَره، وقضائه المُقدّر، ومصيره غير قابل للتكفير، في بنية الوعد والقَسَم، وكلمة الشرف، والعدالة، والرغبة في العدالة. كما لو كان القَسَم من قبل حنثاً باليمين (وهو ما كان الإغريق قد تجاوزوا مجرد الشعور به). لقد سبق أن تحدّثتُ عن هذا مقتفياً أثر ليفيناس، لكنْ، بغرض تعقيد مساره بشكل خطير: هناك حنث باليمين، بمُجرّد ما يكون هناك في وضعية وجهاً لوجه، أكثر من شخصَيْن، بمعنى بمُجرّد ما ينبثق سؤال العدالة والحقّ. بمعنى منذ اللحظة الأولى، وهذا ما يقرّ به لفيناس. منذ أن يكون ثمّة حقّ وثلاثة أشخاص. هناك على الأقلّ، ثلاثة أشخاص منذ فجر وضعية وجهاً لوجه، والنظرة الأولى، ومنذ التقاء النظرة الأولى التي ترى نفسها رائية ومَرئية. إن الطرف الثالث هو الذي يقطع في الآن نفسه وضعية وجهاً لوجه، ويجعلها ممكنة. ونتيجة لذلك فإن العدالة عينها هي ما يدفعني إلى أن أحنث باليمين، وأتورّط في مشهد الصَّفْح.

يتوجّب عليّ الاستصفاح - لكي أكون عادلاً. افهموا جيّداً لُبس كلمة "لكي". يتوجّب عليّ طلب الصَّفْح من أجل أن أكون عادلاً، لكي أكون عادلاً، بغية أن أكون عادلاً؛ لكنْ، يتوجّب عليّ طلب الصَّفْح أيضاً، لكي أكون عادلاً، بغرض أن أكون كذلك، لأني عادلٌ، ذلك لأني ظالم وأخون إذا ما أردتُ أن أكون منصفاً. يتوجّب عليّ طلب الصَّفْح من أجل (فعلة) أن أكون عادلاً. لأنه من غير العادل أن يكون المرء عادلاً. دائماً ما أخون شخصاً ما، لكي أكون عادلاً؛ أخون دائماً هذا الشخص من أجل شخص آخر، أحنث باليمين مثلما أتنفّس. وذلك إلى ما لا نهاية، لأنني أطلب



مكتبة الفكر الجديد

دوماً الصَّفْح، ليس فقط من أجل الحنث باليمين، بل إني دائماً ما أخاطر بالحنث باليمين عند قيامي بالصَّفْح، أخاطر بخيانة شخص آخر، وأنا أصفح، لأن حياة الإنسان مكرّسة دائماً للصَّفْح (بإفراط، إذنْ) نيابة عن شخص آخر.

عفواً ! اعذروني لكوني أخذتُ الكثير من وقتكم، من دون رحمة. شكراً.

عندما نقول "شكراً"، هل نقول "شكراً"، أشكركَ على ما تعطيني، وهو ما أقرّ به اعترافاً بالجميل؟ أم نقول "الرحمة"، أطلب منكَ الرحمة، أطلب منكَ ألا تكون " merciless "، أسألكَ الصَّفْح من أجل ما تعطيني، أحمدكَ على النعمة، على الصَّفْح الذي أطلب منكَ أن تمنحه لي ثانية، إلخ. في الحقيقة، لن تعرفوا أبداً ماذا أقول لكم حينما أقول لكم، لأختمَ: معذرة، وشكراً مثلما قلتُ في البدء.

في البدء، سيكون ثمّة لفظ "صَفْح"، "شكراً".



مكتبة الفكر الجديد

مكتبة
الفكر الجديد

# ثبت بالمصطلحات والمفاهيم المعتمدة

| | |
|---|---|
| Amnistie | عفو |
| Annihilation | محْقٌ |
| Aporie | معضلة |
| Châtiment | عقاب |
| Conditionnalité | مشروطية |
| Coupable | مذنب |
| Déréliction | استغاثة |
| Détresse | عزلة |
| Don | هبة |
| Excusable | ما يقبل العذر |
| Expier | كفّر |
| Expiationl | تكفير |
| Gêne | حرج |
| Grâce | عفو |
| Honte | خجل |
| Imprescriptible | ما لا يتقادم |
| Imprescriptibilité | عدم قابلية التقادم |
| Impur | مدنس |
| Ineffaçable | ما لا يمحى |
| Inexpiable | لا يقبل التكفير |
| Inoubliable | ما لا ينسى |
| Irrécusable | ما لا يقبل الجدل |

مكتبة الفكر الجديد

| | |
|---|---|
| Irrémédiable | عضال |
| Irréparable | ما يستحيل جبر ضرره |
| Irréversible | ما لا رجعة فيه |
| Irrévocable | ما لا يلغى |
| Jurer | أقسم |
| Malédiction | لعنة |
| Massacre | مجزرة |
| Pardon | صفح |
| Pamphlétaire | سجالي |
| Parjure | حنث باليمين |
| Péché | خطيئة |
| Pitié | رحمة |
| Prescription | تقادم |
| Rachat | إعتاق |
| Réconciliation | مصالحة |
| Reconnaissance | اعتراف |
| Rédemption | افتداء |
| Regret | حسرة |
| Rémission | عتق |
| Remords | وخز الضمير |
| Repentir | ندم |
| Salut | خلاص |
| S'im-possibiliser | سلب إمكانه |
| Souveraineté | سيادة |
| Spécularité | مرآتية |
| Stupéfaction | ذهول |



مكتبة الفكر الجديد

# فهرس المحتويات


تقديم الترجمة.......................................... ٥

الصَّفْح .............................................. ١٧

ثبت بالمصطلحات والمفاهيم المعتمدة......................... ٧٧




مكتبة الفكر الجديد

.. الصَّفْح، إذنْ، مفهوم استثنائي. إن الجرائم التي ارتُكبت باسم الإنسان، وفي حقّه، تلك الفظائع والشناعات التي تتجاوز حدود الإنسانية وتطال المجال ما فوق الإنساني وتصل إلى حد الشرّ الجذري والمطلق، لا يمكنها أن تستقيم والفكرة الساذجة عن الصَّفْح بما هو توافق سياسي أو قانوني أو تشريعي أو دِيني حتّى: إن هذه الفظائع تدخل في باب ما لا يقبل التكفير، وما لا يقبل جَبْر الضَّرَر، وما لا يمكن مَحوه، والعضال، وما لا رجعة فيه، وما لا يُنسى، وما لا يُلغى أو يُنقَض، إنها تتجاوز الحدّ النهائي والأخير...

نص دريدا هذا، هو قراءة ومناقشة لأطروحات الفيلسوف الفرنسي فلاديمير جانكليفيتش الذي عالج مسألة الصفح عن مقترفي المحرقة النازية، في كتابيه «الصفح» (١٩٦٧) و «ما لا يقبل التقادم» (١٩٨٦)، إلا أن تناوله جاء متسما بالحدة المفرطة وبالإفراط المتزايد، الشيء الذي أفقد الصفح معناه.

مكتبة
الفكر الجديد
08-08-2018

ISBN: 978-88-85771-36-9
9 788885 771369
المتوسط